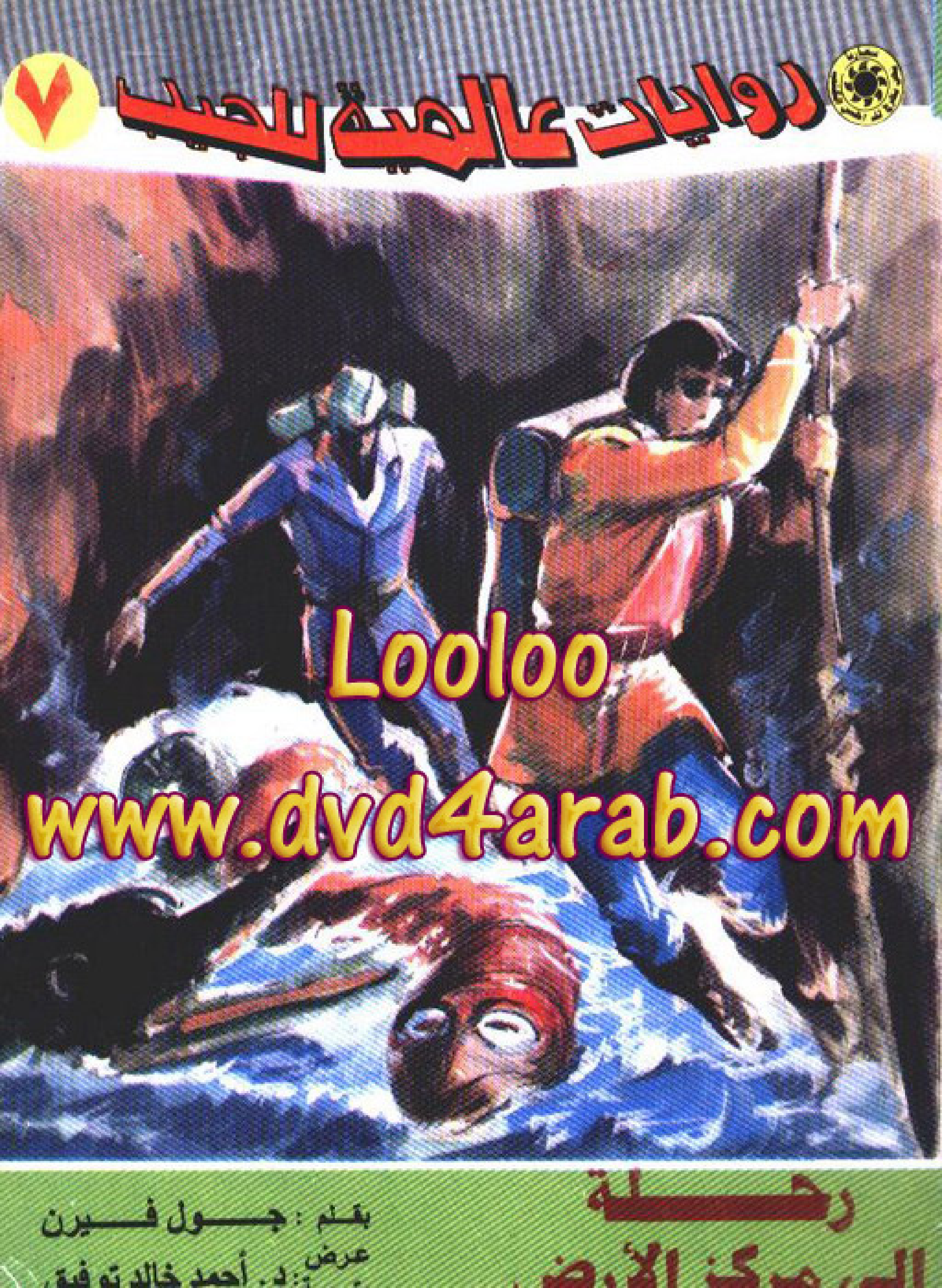


روايات عالمية للجيب
٧
Looloo
www.dvd4arab.com
رحلة
إلى مركز الأرض
بقلم : جول فيرن
عرض : د. أحمد خالد توفيق

روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمى ، فى مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

المؤلف

إن هـؤلاء الذيـن توتـرت أعصـابهم مـع (فيلياس فوج) الذى يحاول أن يدور حول العالم فى ثمانين يومًا وإلا فقدَ ثروتـه ؛ والذيـن ارتجفوا وهم ينزلون فى غواصـة الكابتن (نيمـو) علـى عمق عشرين ألف فرسخ تحت البحر .. ؛ والذيـن حبست أنفاسـهم مغامرات (ميشيـل ستروجوف) رسـول القيصر ؛ والذيـن غرقوا فى الحسابات المعقـدة مـع (ميشيل آردان) لمعرفـة هل يمكنهم الوصـول إلـى القمر عبر فوهـة مدفـع أم لا .. ، كل هؤلاء يعرفون جيدًا الأديب الفرنسى العبقرى (جول فيرن) !

من هذا العبقرى صانع الأحلام ؟

• ولـد (جـول فيرن) فـى (نـانت) بفرنسا عـام ١٨٢٨م .. درس القـانون وهـوى الأدب .، وكالعـادة كـانت لـلأدب الكلمـة العليـا .. وهكـذا قـدم بعـض مسرحيات شعرية محدودة النجاح ، وروايـة تاريخية عاطفية (مارتن باز) لم يسـمع بها أحد ، علـى أن نجاحه تحقـق حين قدَّم روايتـة (خمسـة أسابيع فـى منطـاد) التـى حققت نجاحًا غير عادى .. ، وتوالـت رواياته ذات الأسماء المدوية والتى جعلت منهـا

السينما أحلامًا ملموسة عالقة بالأذهان .. (مغامرات الكابتن هاتيرا) .. (رحلة إلى قلب الأرض) .. (من الأرض إلى القمر) .. إلخ .... ثم توالت سلسلة رواياته المسماة (رحلات فوق العادة) والتى ضمّت أسماء مثل (الجزيرة) (ميشيل ستروجوف) .. (سيد العالم) .. (عشرون ألف فرسخ تحت الماء) .. إلخ ..

وقد قضى هذا الأديب العبقرى حياته فى رحلات لا تنتهى على ظهر يخت خاص به لأنه لم يحب فى حياته ـ على حد قوله ـ سوى البحر والموسيقا والحرية .. ولا أظن أحدكم يخالفه الرأى ! .. ، ثم إنه تُوفى عام ١٩٠٥ م ، معلنًا مصرع الخيال الساحر الذى بهرنا جميعًا ... ، وكان عمره سبعة وسبعين عامًا وقتها ..

وكلما حقق الانسان فتحًا جديدًا كالصعود للقمر اكتشف فى دهشة أن (جول فيرن) أو (هـ . ج ويلز) أو حتى رسوم (ليوناردو دافينشى) التى لم تنفذ قط كلها تنبأت ـ بنظرة مستقبلية لا تخيب ـ بهذا الفتح .. إنها شفافية الفنان وإيمانه الكامل بملكات العقل البشرى ، بالإضافة إلى قدرته السحرية على الحلم ..

إن كتاب الخيال العلمى أطفال كبار .. ولهذا يأخذ النقاد على كتاباتهم خلوّها من البعد الإنسانى ،.. وهذا

شيء طبيعى بالنسبة لطفل يحلم ..!..، لا أحد يطالبه أن يحلم بعمق ولكن بإمتاع ..

على أن هنالك ملحوظة أرجو ألا تقلل من حماس القارئ وإنبهاره بهذه الرواية .. هى أنها لا يمكن أن تتحقق .. على الأقل بصورتها الحالية ..!.. إن كاتبًا مدققًا (*) فى التفاصيل العلمية يؤكد أن هذا مستحيل .. لأن النزول فى أعماق الأرض لمسافة ثمانية أمتار يزيد الضغط الجوى بمقدار ٠,٠٠١ مما هو عليه ، وبالتالى على مسافة ثمانية وأربعين كليومترًا — العمق الذى بلغه بطلا القصة ـ يكون الضغط الجوى أكبر بأربعمائة مرة .. وتزداد كثافة الهواء ٣١٥ مرة ..، على أنهما خلال أحداث القصة وصلا إلى عمق ١٢٠ كليومترًا ، وهو أمر مستحيل ولا يمكن أن يتحمله بشر . ويقول الكاتب إن أكبر عمق يستطيع الإنسان النزول إليه دون أن يصاب بأذى هو ٨,٩ كليومتر حيث يتضاعف الضغط الجوى إلى ثلاثة أمثاله ..

ملحوظة بسيطة نذكرها حرصًا على الدقة لكننا لن نتركها تحرمنا من الاستمتاع بهذه الرواية الرائعة ..!

د. أحمد خالد

(*) الكاتب الروسى (ياكوف بريلمان)

١ ـ أوراق قديمة...

كان ذلك فى يوم الأحد الرابع والعشرين من مايو عام ١٨٦٣ م ، حين اندفع عمى ـ البروفسير (ليدنبروك) ـ إلى منزله الصغير رقم ١٩ الكائن فى شارع (كونيش) بمدينة (هامبورج) ..

كان أول ما فكرتْ فيه طاهيتنا (مارتا) هو أنها قد تأخرت فى إعداد العشاء .. أما أنا فقد أدركت أن كارثة ستحدث إذا ما كان جائعًا .. لأنه ـ بالفعل ـ أكثر الرجال نفاذًا للصبر فى هذا العالم...

صرخت المرأة البائسة فى هلع :

ـ لقد عاد السيد !!..

ـ بالفعل يا (مارتا) .. وأعتقد للأسف أن العشاء لم يُعدّ بعد .. فالساعة لم تتعدّ الواحدة والنصف ..!

سألتنى (مارتا) فى حيرة ..

ـ ولماذا عاد مبكرًا هكذا ..؟

ـ سيحكى لنا بنفسه ..

ـ ها هو ذا قادم .. سأعود للمطبخ .. وأرجو أن تسأله عن سرّ عودته المبكرة هذه .. وقل له إن العشاء ليس جاهزًا ..

هكذا وجدت نفسى وحيدًا .. ولم أجد لدىَّ أية رغبة فى أن أفسر أى شىء لهذا البروفسير (فاقد الصبر).. ؛ لهذا أزمعت أن أهرب إلى غرفتى .. حين اندفع عمى إلى المنزل ..، وقبل أن أفهم شيئًا رمى عصاه فى ركن الغرفة وقبعته على المائدة .. وصرخ :

ـ (أكسل) اتبعنى !!

وقبل أن أحرك ساكنًا .. دوى صوته وقد اكتسب رنينًا نافد الصبر إلى حد لا يُوصف :

ـ ماذا ؟.. أما زلت هنا ؟

لهذا وثبت من مكانى خلف هذا الرجل المرعب الذى اتجه الى مكتبه ..

* * *

لم يكن (أوتوليدنبروك) رجلاً سيئًا ..

إلا أنه كان ـ كما لاحظتم ـ رجلاً شديد العصبية يستحيل إرضاؤه ..، وكان أستاذًا فى الجامعة يعطى محاضرات فى علم (الجيولوجيا) يفقد فيها أعصابه بشكل منتظم ، ولم يكن يهتم كثيرًا بما إذا كان طلبته يدرسون بجهد أو يفهمون أى حرف من كلامه أو ينجحون أو يرسبون ... لا شىء من كل هذا .. كل ما كان يعنيه هو أنه يستمتع بمحاضراته ..، على أنه

ـ للأسف ـ كان يلاقى أحيانًا صعوبات فى نطق بعض المقاطع العلمية الطويلة التى تأبى الخروج من فمه .. والتى تؤذى قائلها وسامعها على السواء ...، وبالطبع كان علم (الجيولوجيا) يزخر بهذه المقاطع الشنيعة نصف اللاتينية نصف اليونانية .. من ثَمَّ كان يفقد أعصابه كثيرًا ...!

وقد أدرك تلاميذه السحر الكامن فى لحظات عصبيته هذه ؛ لذا واظبوا ـ فى خبث ـ على حضور محاضراته .. ليضحكوا ..

على أن عمى ـ والحق يقال ـ كان رجل علم حقيقيًا .. لو أنك ناولته صخرة .. أية صخرة .. سينظر لها .. ويتحسسها .. ويشمها ويقرعها مصغيًا لصوت القرع ، ثم يقول لك ـ فى كل الحالات ـ أية صخرة هذه ومن أين جاءت .. من بين الستمائة نوع من الصخور التى يعرفها العلم حتى اليوم .؟.

وكان رجال العلم يثقون به ويستشيرونه فى عديد من الأمور .. كان طويل القامة .. ناحلاً يبدو وهو فى الخمسين كأنه فى الأربعين من العمر ، وكانت عيناه الواسعتان تلتمعان خلف زجاج منظاره ، على حين يذكرك أنفه الطويل الحاد بنصل السكين .. ذلك الأنف

الذى شبهه الكثيرون بالمغناطيس ، وزعموا أنه يجذب الأجسام الحديدية .. لكننى أستطيع ان اؤكد لك أن هذا لا يحدث عادة !

وكان عمى ثريًا إلى حدً ما .. وقد عشت معه فى هذه الدار ونشأت معه وابنته (جروبين) والخادمة (مارتا) لأن ابوىّ قد توفيا ..

يجب أن أعترف لك أننى أهيم حبًا بعلم (الجيولوجيا) ولقد وجدت سعادة حقًا فى معاونة عمى في عمله مابين الصخور والأحجار .. لقد كان يحبنى حقًا برغم أسلوبه العجيب فى إظهار هذا الحب .. فى الواقع كان رجلاً لا يملك موهبة الانتظار .. يزرع الزهور ويجذب أوراقها كل صباح كى يعجل بنموها .. !

لهذا .. وحين نادانى لم يكن أمامى سوى شىء واحد افعله .. أن أركض كالملسوع إلى مكتبه ..!

* * *

كان عمى جالسًا فى مُتحفه ـ أعنى مكتبه ـ بين عينات الصخور المتراكمة هنا وهناك على (شيزلونج) كبير يمسك كتابًا فى يديه ويرمقه فى إعجاب عظيم ..

ــ ياله من كتاب !.. يالهَ من كتاب !

يجب هنا أن أذكر أن عمى كان عاشق كتب ..

- لقد وجدت هذا الكنز صباح اليوم فى مخزن كتب قديم ..

- رائع !

قلبتها دون أن أجد تفسيرًا يبرر الروعة فى كتاب بالٍ قديم غُلِّفَ بجلد أصفر متسخ ..

- هل ترى ؟ .. إنه بحال جيدة .. يُفتح ويُغلق بسهولة .. وبرغم هذا فعمره ستة قرون !

وجدت من واجبى أن أقول شيئًا ما أدارى به لامبالاتى :

- وما هو عنوان هذا الكتاب الرائع ؟ .

- اسمه ؟ .. اسمه (هايمس كرينجالا) للكاتب الأيسلندى الأعظم (سنورى توراليسون) .. ويحكى فيه تاريخ أمراء النرويج الذين حكموا (أيسلندا) .. والكتاب كله مكتوب بحروف (رونية) .. تلك الحروف رائعة الجمال التى كانت مستعملة فى (أيسلندا) ..!

وهنا .. سقطت لفافة صغيرة من الكتاب العتيق .. وثب عمى - كما يمكنك أن تتوقع - ليمسك بها .. والتقطها .. ، كانت ورقة طولها خمس بوصات ، وعرضها ثلاث ، خُطَّت عليها حروف غريبة ..

- إنها حروف (رونية) أيضًا .. ولكن مامعناها ؟..

كنت أومن أن هذه الحروف (الرونية) هى حروف اخترعها أناس موهوبون كى يزيدوا متاعب أولئك البؤساء الذين لديهم ما يكفى من المتاعب .. لهذا سررت لأن عمى لم يفهمها ..

كان عمى خبير لغات .. لا أعنى بهذا أنه يجيد الألفى لغة المستعملة فى العالم ، لكنه كان يعرف الكثير عن معظمها .. لهذا كانت هذه المشكلة قمينة بأن تفقده أعصابه ..

فى هذه اللحظة انفتح الباب .. وظهرت (مارتا) لتقول :

ــ العشاء على المائدة ..

كان رد عمى هو سيل من السباب ألقاه على رأسها فولّت الأدبار .. وتبعتها أنا إلى مقعدى المعتاد على مائدة الطعام ..

انتظرت هنيهة ، لكن عمى لم يأتِ ...

لم أعتد منه أن يتأخر عن عمل هام كالعشاء .. وأى عشاء !.. عشاء هائل .. لهذا حرصت على أن آكل نصيبه مع نصيبى ، على صوت عويل (مارتا) الطيبة التى توجست شرًا من كل هذا :

ــ لم أر شيئًا كهذا من قبل .. السيد (ليدنبروك) لم

يأت للعشاء ! لا أصدق ذلك .. ثمة شىء رهيب سيحدث !.. كارثة !..

بالنسبة لى، كانت الكارثة هى أن يعلم عمى بما حدث لعشائه ..، وكنت أوشك على الانتهاء حين دوى صوته كالرعد ينادينى .. فطِرْتُ إلى مكتبه ..

ـ اجلس ها هنا .. واكتب ..

أمرنى عمى ، فامتثلت على الفور ..

ـ سأمليك الحرف الرومانى المقابل لكل حرف من هذه الحروف (الرونية) .. وسنحاول أن نرى ما ينتج من كل ذلك ..

بدأت أسطر مجموعة عجيبة من الكلمات التى لامعنى لها ..، وما إن فرغتَ حتى تناول عمى الورقة وشرع يتأملها فى حيرة ..

ـ إنها ما يُسمى بالـ (كربتوجرام) .. حيث يتم خلط الحروف لتكوين كلمات بلا معنى لا تُفهم إلا إذا أعدناها للترتيب الصحيح ..

لم يبدُ لى كل هذا ذا معنى ، لكننى كنت أحكَم مِنْ أن أصارحه بذلك ..، كان عمى يؤمن أن هذه الورقة كتبها شخص مَا ، اقتنى هذا الكتاب بعد تأليفه بأعوام عديدة.. وبالتفتيش عن اسمه .. فى باطن الغلاف ، استطاع

أن يجده مكتوبًا بحروف باهتة :

ــ (آرنيه ساكنوسمّ) !.. هذا هو اسمه .. اسم العالم الذى اقتنى هذا الكتاب منذ ثلاثة قرون ....! أراهن أنه يخفى فى هذه الشفرة تفاصيل كشف مذهل عرفه فى عصره .. لابد أن الأمر كذلك ....!

وأشار نحوى فى لهفة :

ــ لن آكل ولن أنام حتى أحلّ طلاسم هذه الشفرة .. وكذا أنت يا (أكسل) !

* * *

إن من يملك المفتاح يمكنه حلّ الشفرة .. ولكن أى مفتاح ؟ كنت أنا شارد الذهن أرمق صورة (جرويبن) المعلقة على الحائط ، وكانت ساعتئذ فى (لاتونيا) فى زيارة مّا ، كنت أنا و (جرويبن) نعشق بعضنا ، فى صبر وهدوء رزين .. وكنا قد تعاهدنا على الزواج ، لكن عمى لم يدرك شيئًا عن هذا ، لأن (الجيولوجيا) جعلته عاجزًا عن فهم أشياء كالحب ...

كانت (جرويبن) شقراء جميلة ، زرقاء العينين ، فيها شىء من الصرامة فى الواقع .. وكانت تحب (الجيولوجيا) مثل أبيها ومثلى .. وكم من ساعات عذبة قضيناها ندرس معًا ..!.. وحين نفرغ كنا نتنزه على

شاطئ النهر ، نتبادل كلمات حالمة .. ونضحك..

- لا معنى لهذا !

قالها عمى وهو يضرب المائدة بقبضته ، مما أعادنى لعالم الواقع .. كان غارقًا فى محاولات فاشلة لإعادة ترتيب الحروف .. وفى اللحظة التالية كان قد غادر الغرفة مندفعًا نحو الشارع بأسرع ما استطاعت قدماه .. وسمعت (مارتا) صوت الباب يُغلق بعنف هز البيت .. فصرخت :

- لقد ذهب !..

- بالفعل ..

- دون عشاء ؟..

- عزيزتى لن يحتاج السيد للأكل بعد اليوم .. ولن يأكل مخلوق فى هذا البيت بعد اليوم .. فلن يُسمح له بذلك ..!

- إذن سنقضى جميعًا من الجوع ..!

وكان كلامها صحيحًا أكثر مما تتوقعه ..!..

عدت للمكتب بقلب كئيب ، وشرعت أنسق بعض الصخور مفكرًا أين عساه يكون ؟ .. تخيلته يخطو فى شوارع (لاتونيا) خطواته الواسعة آتيًا بحركات عصبية .. قاطفًا الأزهار .. ومفزعًا للطيور البريئة ..

أمسكت بالورقة ، وعدت أحاول ترتيب الحروف مفترضًا أن اللغة اللاتينية هى ما كتبت به الشفرة .. أجهدت نفسى حتى أن الحروف بدأت تتطاير متداخلة فى عقلى ...، بدأت أحرك الهواء بالورقة .. وهنا تبدى لى بصيص من الفهم .. لقد وجدت الحلّ ...!

* * *

لقد كان البروفسير محقًا فى ترتيب الحروف ، لكنه كان يحتاج لخطوة واحدة ـ مثل التى وجدتها بالصدفة ـ كى يجد حلّ اللغز ، والآن يمكننى أن أقرأ المكتوب على الورقة باللغة اللاتينية ..

وهنا انتابنى الذعر !.. هل هذا صحيح حقًا ؟.. هل بلغت الشجاعة بأحدهم هذا الحدّ ؟!.. لا .. لن أدع عمى يعرف ، لأنه لن يكتفى بأن يعلم ما حدث ، بل سيصمّم على أن يرى بنفسه .. لن يقاوم الإغراء .. وسيذهب ويأخذنى معه !.. عندئذ لن نعود أبدًا ..!..، لو أنه تفحّص الورقة وبدأ يحركها ، كما فعلت ، لربما عرف السرّ .. يجب أن أحرقها !

اتجهت نحو المدفأة لألقى فيها بالورقة ..

وهنا فتح الباب ودخل عمى ..

استطعت بصعوبة أن أخفى الورقة معيدًا إياها

لموضعها . وجلس عمى يواصل محاولاته ـ الفاشلة حتمًا ـ فى إعادة الترتيب لمدة ثلاث ساعات كاملة ..
ومر الوقت مملاً حتى غفوت فى مقعدى ..

صحوت فى الصباح لأجده مازال يكافح المستحيل .. عيناه الحمراوان ، ووجهه الشاحب ، أخبرانى بالكثير .. بدأت أشعر بالحسرة من أجله ، خاصة وأنه كان منهمكًا إلى درجة أنه نسى العصبية ! ..، لكن أسبابى كانت قوية .. إننى أعمل من أجل مصلحته .. ولهذا لن أنهى معاناته أبدًا .. دعه يجد السر وحده إذا استطاع ..

لكنى لم أتوقع إلى أى مدى ذهب عمى ..

حين استعدت (مارثا) للذهاب لجولتها المعتادة فى السوق ، لم تجد مفتاح الباب الأمامى .. وهنا فهمتُ .. لقد أخذه عمى ، ليجعلنا نتضور جوعًا عقابًا لنا على عدم فهمه للشفرة !..، لقد صرنا سجينين مع عمى داخل المنزل إلى أن يجد حلاً ..

الساعة الثانية عشرة والجوع يمزقنى .. لكنى سأظل صامتًا ..

الساعة الثانية ظهرًا .. بدأت أفقد صبرى وبدأت أرى الأمور بشكل مختلف .. لربما لن يصدق عمى حرفًا من المكتوب فى الورقة .. سيعتبرها مزحة سخيفة .. بل إذا

ُرضنا أنه صدّق المكتوب وصمم على القيام بهذه الرحلة ، فمن الممكن دائمًا منعه .. أنا سأمنعه ..

لا جدوى إذن من الموت جوعًا ..

علىَّ أن أخبره بالسرّ ، لكن بشكل غير مفاجئ حتى لا أثير ريبته ..

التقت عيناه بعينى فى هذه اللحظة فلاحظ ــ بلا مراء ــ شيئًا غير معتاد فى نظراتى .. أمسك ذراعى بحدة ونظر لى ثانية ، كأنما يسأل سؤالاً .. ولم يكن باستطاعته أن يسألنى سؤالاً أكثر وضوحًا ..

حركت رأسى بمعنى "نعم .. لقد وجدت مفتاح الشفرة .. "

هز رأسه بمعنى "أنت معتوه" ، فحركت رأسى ثانية ، مما جعل عينيه تلتمعان ، وقبضته تزداد إحكامًا . أخشى إن صارحته بالحقيقة ، أن يهشمنى ، تعبيرًا عن عرفانه بالجميل ..

ناولته قطعة الورق التى عليها الكلمات التى أملاها علىّ .. وهمست :

ــ اقرأها ..!

ــ لكنها بلا معنى ..

ــ ليس إذا قرأتها بالعكس .. من آخر حرف حتى أول حرف ..

أصدر عمى صيحة فرح جنونية .. وبدأ يقرأ الورقة بصوت مرتجف بادئا من آخرها .. وكانت بلغة لاتينية رديئة حقا ، لكنها واضحة ..

" انزل من فوهة (يوكول) (سنيفل) الذى يمسه ظل (سكارتاريس) بنعومة قبل بداية شهر يوليو أيها المسافر الشجاع . وستصل إلى قلب الأرض كما فعلت أنا " .

(آرنيه ساكنوسم)

ما إن قرأ عمى هذه الرسالة حتى وثب فى الهواء كمن أصابه مس ، وشرع يتقافز فى الغرفة ، ويركل قطع الأثاث .. بل ـ صدق أو لا تصدق ـ يطوّح أحجاره الثمينة فى الهواء ويتلقفها .. ثم بدأ يهدأ أخيرًا :

ـ كم الساعة الآن ؟

ـ الثالثة بعد الظهر ..

ـ إننى لم أتعشَّ أمس .. أريد شيئا آكله حالاً !.. وبعدها ..

ـ بعدها ..؟

ـ سأعدّ أكبر حقائبى ..!

ـ ولماذا ؟

قال البروفسير ـ عديم الشفقة ـ وهو يهرع لغرفة الطعام :

ـ ولتعدّ أنت أيضا حقيبتك ..!!

عند سماع هذه الكلمات غاص قلبى فى قدمى ..!!

* * *

٢ ـ الرحلة ...

برغم هلعى تظاهرت أمام عمى بأننى موافق .. كنت أدرك أنه لن يصغى إلا لمنطق العلم .. وكان هذا المنطق فى صفى .. رحلة لقلب الأرض !.. ياله من هراء !..، يمكننى أن أناقش هذا فيما بعد .. أما الآن فتناول الطعام هو مهمتى الأساسية ...

وجلسنا نلتهم الطعام بينما عمى يثرثر ويمزح .. بل لقد ألقى ـ تخيل هذا ـ بعض الفكاهات ، الأمر الذى لم أعتده من قبل ..

وبعد أن فرغنا ، دعانى إلى مكتبه ..

قال لى وهو يجلس على المائدة :

ـ لقد قدمت لى الجواب يا (أكسل) فى الوقت الذى كدت أيأس فيه ، إنك لولد ذكى ، ولن أنسى صنيعك هذا ما حييت ..

ثم أردف :

ـ ليكن هذا السرّ بيننا .. ثمة علماء يغارون منى ويرغبون فى سرقة هذه الرحلة .. لهذا لا ينبغى أن

يعلموا شيئًا عنها حتى نعود ..

ــ هل أنت واثق أن هناك الكثيرين ممن يرغبون في ذلك ؟

ــ حتمًا ..!.. من ذا الذي لا يرغب في كسب الشهرة والمجد ؟

ــ هذا هو ما أعنيه .. لِمَ لا تكون هذه المخطوطة مجرد دعابة حمقاء ؟

كنت ــ بالتأكيد ــ غير موفّق في كلمتي الأخيرة .. وتوقعت أن ينفجر في وجهي .. لكن ابتسامة وديعة تلاعبت على ثغره وقال :

ــ هذا هو ماسنتحقق منه بأنفسنا !

ابتلعت ريقي .. وقلت :

ــ اريد أن أعرف معنى هذا الـ (يوكول) والـ (سنيفل) والـ (سكارتاريس) ..

ــ لا توجد صعوبة في ذلك .. من المصادفة أنني قد ابتعت هذه الخريطة الرائعة لـ (أيسلندا) من صديق لي في (لايبتزيش) وعليها يمكننا أن نرى ما نريد .. انظر إلى هذه الجزيرة وبراكينها تجد أن كلاً منها يحمل اسم (يوكول) أما (سنيفل) فبركان ارتفاعه خمسة آلاف قدم على الساحل الغربي (لأيسلندا) .. وهو الذي

يقودنا لقلب الأرض ..

ـ لكن هذا مستحيل .. لابد أن فوهته مليئة بالحمم والصخور الملتهبة ..

ـ وماذا لو كان خامدًا ؟ .. إن عدد البراكين النشطة فى العالم لا يتجاوز ثلاثمائة .. أما البراكين الخامدة ، فعددها يفوق ذلك بمراحل .. ومن بينها (سنيفل) الذى لم يعد أحد يسميه بركانًا ..

ـ وما هو (سكارتاريس) هذا ؟

تنهد عمى :

ـ لقد كان (ساكنوسمّ) خارق الذكاء .. لابد أن (سنيفل) له عدة فوهات ؛ لذا احتاج الرحالة لتحديد أيها تقود لمركز الأرض ..؛ ولذلك أخبرنا أنه فى نهاية (يونيو) ترمى إحدى القمم ـ (سكارتاريس) ـ بظلها فوق الفوهة المطلوبة .. أليس هذا واضحًا ؟

أسقط فى يدى ـ إذ من الواضح أن عمى يملك إجابة على كل سؤال ، إلا أننى ظللت آمل أن أجد حججًا علمية ضد الرحلة ..

ـ إن العلم يؤكد أن هذه الرحلة مستحيلة ..

أجاب عمى فى سخرية :

ـ العلم يقول هذا ؟ .. آه .. ياله من شىء مزعج

ذلك العلم .. أليس محزنا أن يقول لك العلم إن الأشياء الممكنة مستحيلة ..؟

ـ إن العلم يقول إنك كلما توغلت لأسفل ازدادت الحرارة .. حوالى درجة مئوية لكل سبعين قدمًا ، ولما كان مركز الأرض يبعد أربعة آلاف ميل عن السطح ، فلابد أن حرارته تبلغ عشرين ألف درجة ، أى أن أصلب الصخور والمعادن تتحول إلى غاز ملتهب .. فكيف تريد أن تزور مكانا كهذا ؟..

ـ إذن هى الحرارة التى تفزعك ؟.. دعنى أقل لك يا (أكسل) إن العلم لا يعرف شيئا أكيدًا عن الأرض .. من زمن ليس بالبعيد ، كنا نظن أنه كلما ابتعدت عن الأرض كلما انخفضت الحرارة .. الآن نحن نعرف أن الحرارة لا تنخفض فى أى مكان بعيد عن الأرض لأقل من أربعين أو خمسين درجة تحت الصفر .. لماذا لا يكون هذا الحال مع الحرارة ؟.. أن تكون هناك نقطة لا ترتفع بعدها الحرارة مهما انخفضنا ؟..، ثم إن هناك ملحوظة أخرى .. لو كانت حرارة المركز كما تصفها لانفجرت الأرض .. إن معظم علماء (الجيولوجيا) يؤمنون أن قلب الأرض لا يحوى غازات ولا ماء وإلا كان وزن الأرض أقل مرتين مما هى عليه ..

ـ إنك تجعل الأرقام تثبت ما تريد ..

ـ تثبت الحقائق يابنى .. لا تنكر أن عدد البراكين فى تناقص مستمر ، وهذا على عكس المتوقع لو كان قلب الأرض غازًا ملتهبًا ..، وقتها ستتحرك قشرة الأرض كالبحر إبان المدّ والجزر تجاه القمر ، ولكانت الزلازل تحدث طيلة الوقت ..

كنت قد بدأت أتبين شيئًا من الصواب فى كلام عمى حين قال لى وهو يربت ظهرى :

ـ إننى أومن أن باطن الأرض ليس حارًا .. لكن دعنا نر ذلك بأنفسنا

* * *

تركت عمى وبدأت أذرع شوارع (هامبورج) شارد الذهن ملتهب الوجدان ، هل أنا مقتنع حقًا أم أن كلماته هى التى زينت لى هذه الفكرة المجنونة .. ؟ هل ما سمعته كلام رجل معتوه ، أم نبوءة عالم عبقرى ؟.. أين تبدأ الحقيقة وأين تنتهى ؟!

كنت أسير عبر شاطئ النهر متجهًا للريف .. إلى (التونيا) ربما على أمل أن ألقى (جرويبن) ..

وبالفعل رأيتها فى الطريق لدارها ..

صرخت فى دهشة :



كنت أسير عبر شاطئ النهر متجهًا للريف .. إلى (ألتونيا) ربما على أمل أن ألقى (جروبين) .. وبالفعل رأيتها ..

– (أكسل) !.. لقد جئت لتلقانى ,..؟

ولكن ما إن رأت وجهى حتى توجست شرًا ..

– ماذا حدث ؟

حكيت لها القصة بأكملها فلم تعلّق لدقيقة كاملة .. ثم قالت :

– (أكسل) .. ستكون رحلة عظيمة ..!

– ....!

– نعم .. رحلة تفخر بها .. وستجلب لك الشهرة ..، لكم أتمنى لو جئت معكما ، لكنى فتاة معدومة الحيلة ، ستزيد متاعبكما فقط ..

لا يمكن أبدًا فهم هؤلاء النسوة .. فهن إما أن يكن مثال الجبن ، أو ذروة الشجاعة ، ولا دخل للمنطق فى هذا ..

– لربما غيّرت رأيك غدًا ..

– غدًا – عزيزى – سأقول نفس الشىء ..

سرنا متشابكى الأيدى دون مزيد من الكلام .. كنت منهكا من جرّاء الأحداث الأخيرة ، إلا أننى واسيت نفسى بأن (يوليو) لم يزل بعيدًا ، ولم يزل من الممكن أن تقع أشياء وأشياء تجعل عمى يعدل عن هذه الرحلة المشئومة ..

* * *

ولكن ما إن عدت للبيت حتى فوجئت بعمى يصرخ ويجرى ما بين رجال يحملون البضائع للبيت .. وقد بدا على خادمتنا العجوز أنها على حافة الجنون ..

ـ هلم يا (أكسل) !.. تعال ..!.. يالك من مزعج ..!.. ألم تحزم حقائبك وترتب أوراقى بعد ؟

أصابنى الذهول ..

ـ إذن نحن ذاهبان ؟!

ـ حتمًا !.. ماذا تعنيه حين تذهب للنزهة وتهمل استعدادات السفر ؟

ـ حقًا ذاهبان ؟!

ـ طبعًا بعد غد فى الصباح الباكر ..

لم أحتمل سماع المزيد ، فهرعت لغرفتى حين وجدت (جرويين) قد سبقتنى .. وهتفت فى حماس :

ـ إن أبى رجل علم حق لا يخيفه شىء .. ويجب عليك أن تكون فخورًا به يا (أكسل) . سينجح .. أنا واثقة .. ستصيران شهيرين ، وستغدو رجلاً حرًا فى كلامه .. حرًا فى أفعاله .. حرًا فى ....

وصمتت .. إلا إننى أدركت ما تعنيه .. شعرت بشىء من الحماس ، إلا إننى حتى هذه اللحظة لم أكن قادرًا على استيعاب فكرة الرحيل .. وفى كآبة أمسكت يد

(جروبين) مقتادًا إياها إلى مكتب عمى ..
سألت عمى فى تردد :
ـ عمى .. أريد أن أفهم لماذا العجلة ..؟
ـ لماذا ؟.. لضيق الوقت طبعًا ..
ـ لكن اليوم هو السادس والعشرون من (مايو) .. ولم تزل نهاية (يوليو) ..
ـ وهل تظن أيها المعتوه أننا سنبلغ (أيسلندا) بهذه السرعة ؟.. إن هناك سفينة واحدة بين (كوبنهاجن) و(رايكيافيك) فى الثانى والعشرين من كل شهر .. ولو انتظرنا حتى (يونيو) سنصل إلى (رايكيافيك) متأخرين بعد أن يسقط ظل (سكارتاريس) على الفوهة .. يجب أن نبلغ (كوبنهاجن) بأقصى سرعة ممكنة ..

وهكذا حزمت حقائبى بمعونة (جروبين) التى كانت هادئة ، كأننى فقط ذاهب إلى المدينة المجاورة .. كيف أتركها .. كيف ؟..

مرَّ اليوم التالى فى الاستعدادات والمزيد من المؤن والبضائع تتراكم فى الدار ... ثم نمت كحجر على فراشى .. وكانت ليلة سوداء حلمت فيها بالبروفسير يجرنى لأعمق أعماق الأرض .. وأنا أهوى .. أهوى .. أهوى فى حفرة عميقة بلا قرار ..

* * *

وفى الخامسة صباحًا ذهبت لغرفة الطعام لأجد عمى يلتهم إفطاره فى عجلة .. كانت معدتى متقلصة والإنهاك يغزو بدنى ..، فى الخامسة والنصف وصلت عربة لنقل متاعنا إلى محطة القطار ..

كان عمى يودّع (جروبين) حين التفتتْ نحوى .. وهمست :

ــ عزيزى (أكسل) .. أنت راحل الآن .. لكن عند عودتك ستجد زوجتك ..

لم أستطع أن أقول شيئًا سوى:

ــ وداعًا يا حبيبتى (جروبين) ..

وفى السادسة والنصف وصلنا المحطة .. وفى السابعة تحرك القطار ..

* * *

بعد وصولنا إلى (كيل) ركبنا القارب إلى (كوبنهاجن) .. وكان عمى يوشك على الجنون ويكاد يدفع القارب إلى وجهته دفعًا ..، فى (كوبنهاجن) توجهنا إلى مُتحف (الجيولوجيا) حيث قابلنا البروفسير (تومسون) الذى كان يعرف عمى . ولقد أبدى الرجل لنا حفاوة واضحة ، وشرع يفتش عن قارب يقلنا إلى (أيسلندا) حتى وجد واحدًا اسمه

(فالكيرى) كان سيرحل فى الثانى من (يونيو) إلى (ريكيافيك) ..

شرعت أنا وعمى نستكشف المدينة .. كنت أنا كطفل منبهر بكل شىء ، أما عمى فلم يبد اهتمامًا سوى ببرج كنيسة عالٍ على الجزيرة التى تشكل الجزء الجنوبى الغربى من (كوبنهاجن) .. لم أجد ما يسترعى اهتمامى سوى أن برج الكنيسة شديد الارتفاع أكثر من اللازم ..

ـ هلم نصعد لأعلى ..

قالها عمى وهو يجذبنى خلفه ..

ـ لكن هذا قمين بأن يثير لدىّ الدوار .. أنا لا ارتاح للمرتفعات ..

ـ هذا سبب كافٍ للصعود .. يجب أن نعتاد الأماكن الشاهقة ..

ـ لكن ..

ـ هيا ..!

وهكذا لم أجد بدًا من الصعود .. درجة بدرجة .. مائة وخمسين درجة .. بعدها بدأت أشعر برأسى يطفو وبأن البرج يهتز مع الريح .. اضطررت أن أزحف على ركبتى ويدى مغلقًا عينىّ بصرامة .. حتى وصلنا إلى القمة ..

ـ انظر لأسفل .. يجب أن تعتاد ذلك ..

فتحت عينى فرأيت المنازل كالألعاب .. وفوق رأسى تحركت السحب مارة عبر السماء لكنها بالنسبة لى كانت ثابتة .. خُيل لى أن الأرض وبرج الكنيسة هما اللذان يتحركان ..، وكنت أرى ساحل (السويد) من بعيد ..

استمر هذا الدرس ساعةً كاملة .. وحين سمح لى عمى أخيرًا أن انزل .. وحين لمست قدماى أرض الشارع ظننت لوهلة أننى قد فقدت القدرة على المشى إلى الأبد ...، ولمدة خمسة أيام واظبنا على هذا العمل حتى أننى ـ بالرغم منى ـ بدأت أتعلم كيف أنظر لأسفل دون أن يصرعنى دوار المرتفعات ..

وهكذا صرنا مستعدين لركوب الـ (فالكيرى) إلى (أيسلندا) ..

استغرقت رحلتنا عشرة أيام عبر (السينور) .. ساحل السويد (سكاجن) .. ثم بحر الشمال الرهيب .. بعدها عبرنا ساحل (اسكتلندا) .. وجزر (فارو) ، وفى اليوم الحادى عشر رأينا ساحل (ايسلندا) ..

نظر عمى إلى الساحل الشمالى وأشار فى لهفة إلى جبل عالٍ له قمتان يغطيهما الجليد الأبدى .. وهتف :

ـ (سنيفل) !.. (سنيفل) !

ما إن نزلنا إلى الشاطئ حتى التقينا برجل حسن المحيا .. وكان هو حاكم (أيسلندا) البارون (ترامب) بنفسه .. وقد صافحه عمى وتبادل معه حديثًا بالدانماركية لم أفهم منه حرفًا بطبيعة الحال ، إلا أننى استنتجت أن الحاكم يعد عمى بأن يبذل قصارى جهده للعون ..

كما تعرفنا على رجل لطيف الشمائل هو السيد (فريدريكسون) مدرس العلوم فى مدرسة (ريكيافيك) الذى قدم لنا غرفتين فى داره كى نقيم فيهما ..

قال عمى فى سرور حين صرنا وحدنا :

ـ هلم يا (أكسل) !.. الأمور تسير على ما يرام .. ولقد مرّ الجزء السيئ من رحلتنا ..

ـ ماذا تعنى ؟

ـ لم يعد أمامنا سوى أن (نهبط) !

ـ لربما كنت على حق .. ولكن كما سنهبط علينا أن نصعد ..

ـ هذا لا يثير قلقى ألبتة .. سأذهب للمكتبة باحثًا عن كتابات لـ (ساكنوسم) لأنى ـ ولابد ـ واجد بعضها ..

ـ ألن تتجول فى البلدة أولاً ؟

ـ نعم .. إن ما يهمنى فى (أيسلندا) ليس ما هو فوق الأرض بل ما تحتها !!

على أنه عاد بعد ساعات وقد بدت عليه مخايل الإحباط ، لأنه لم يجد أية كتب لـ (ساكنوسم) هناك ، وأخبرنا مضيفنا السيد (فريدريكسون) أن الكنيسة قد اعتبرت ذاك الرّحّالة عدوًا لها ، وأحرقت كل كتاباته ، الأمر الذى فسر لنا سرّ كتابته رسالته بالشفرة ..

وهنا ـ لدهشتنا ـ اقترح السيد (فريدريكسن) على عمى أن يقوم باستكشاف البركان المسمى (سنيفل) لأهميته ..!

ـ هل هو خامد ؟

ـ نعم .. منذ خمسة قرون ..

ـ حسن .. ربما كان من الواجب أن أذهب لأراه .. أ..أقلت لى ما اسمه ؟

ـ (سنيفل) ..

كدت أنفجر ضحكًا وأنا أشاهد عمى يتصنّع الجهل ليدارى لهفته المجنونة لرؤية البركان ، خاصةً والفرصة قد جاءته على طبق من الفضة ، ودون إثارة الشكوك ..

سأله السيد (فريدريكسن) ..

ـ كيف تنوى الوصول إليه ؟

ـ بالبحر طبعًا ..

ـ مستحيل .. إن كل القوارب مشغولة بالصيد فى الناحية الأخرى من الجزيرة ، لهذا ينبغى الذهاب برًا .. طريق طويل لكنه مسلّ .. وعندى لك دليل مأمون الجانب ويمكنك الاعتماد عليه .. إنه شخص ماهر ويتحدث الدانمركية بطلاقة ..

* * *

استيقظت فى الصباح التالى على صوت عمى يتحدث الدانماركية مع أحدهم .. رجل طويل القامة ، متين البنيان وله وجه بسيط قسيم ..، كانت عيناه زرقاوين فى حين تنسدل خصلات شعره الأحمر على كتفيه ..، وكان الهدوء يشعّ من وجوده ، كأنما لا يمكن لشىء فى الكون أن يزعجه ..

كان اسمه (هانز بايلكى) .. دليلنا القادم فى رحلتنا ، وكان على النقيض من عمى فى كل شىء ، إلا أنهما لم يختلفا حول المادة والأتعاب بتاتًا .. فواحد مستعدّ تمامًا لقبول أى أجر وواحد مستعدّ تمامًا لدفع أى أجر .. صفقة بسيطة جدًا كما ترى ..

تم الاتفاق على أن يقودنا (هانز) إلى قرية (ستالى)

عند سفح البركان .. وكانت المسافة اثنتين وعشرين ميلا تلك المسافة التى قدر عمى أننا سنقطعها فى يومين ، إلا أنه حين أدرك أن الميل الدانمركى يساوى أربعة وعشرين ألف قدم ، فهم أن الرحلة لن تقل عن أسبوع كامل !

وحصلنا على أربعة خيول .. اثنين لى ولعمى واثنين للمتاع ، أما (هانز) فسيمشى كما عهده دائمًا ، وقد رفض أن ينال أجرًا قبل أن نصل ..

ـ رجل طيب ..

قالها عمى وأردف :

ـ لكنه لا يدرك أى مجد ينتظره بعد رحلتنا !

ـ هل تعنى أنه سينزل معنا إلى ..؟

ـ نعم يا (أكسل) .. إلى مركز الأرض ..!

* * *

٣ ـ البركان...

قبل الرحيل بدأنا نرتب متاعنا والأشياء التى سنحملها معنا .. وكان من بينها ما هو جدير بالذكر :

١ ـ ترمومتر يمكنه القياس حتى مائة وخمسين درجة مئوية .. وقد بدا لى هذا أقل مما يجب وأكثر مما يجب .. أقل من درجة حرارة مركز الأرض كما أتوقعها.. وأكثر من أى حدّ يمكننا تحمّله قبل أن نتحول لشواء !

٢ ـ جهاز بارومتر خاص لقياس الضغوط الهائلة التى ننتظرها ..

٣ ـ جهاز كرونومتر يرينا الزمن حسب موقع (هامبورج) .

٤ ـ بوصلتان .

٥ ـ مصباحان كهربائيان مأمونان وسهلا الحمل ..

وكان معنا بندقيتان ، لا أرى مبررًا لحملهما .. وسلّم من الحبال .. وفأس ومطرقة ...، أما الطعام فكان فى صورة مساحيق ولحم مقدد يكفينا نحو ستة شهور .

ولم نحمل ماءً ؛ لأن عمى كان واثقًا من المياه الجوفيه !

من الصعب أن أتذكر كل العجائب التى حملناها معنا .. إن عمى لم ينس شيئًا حتى النقود !.. لقد حمل معه مبلغًا كبيرًا ، كأنه كان يتوقع وجود محلات فى مركز الأرض ..

فى الليلة الأخيرة ودعنا مضيفنا .. وفى الساعة السادسة صباحًا ، كان (هانز) ينتظرنا بهدوئه المعهود لنبدأ رحلتنا نحو المجهول ..

* * *

شرعت أتأمل معالم الطريق شاعرًا بنشوة .. أى خطر هنالك ؟..

كل ما علىّ هو أن أقطع هذا البلد العجيب .. وأتسلق بركانًا خامدًا .. وأنزل عبر فوهته مثلما فعل (ساكنوسمّ) الذى ـ وأنا واثق من هذا ـ وصل إلى قاع البركان فظن أنه وصل لمركز الأرض . هذا هو كل شىء .. إذن فلأنعمن برحلتى هذه ولا أعبأ بالباقى ..

كان (هانز) يسبقنا فى السير عبر حقول حاولت جهدها كى تكون خضراء ، إلا أنها فشلت فى الوصول إلا إلى اللون الأصفر .. ومن بعيد تتراءى الهضاب يكسوها

الجليد ..، الطريق يتعرج ، لكن خيولنا تعرف أفضل الطرق للسير وتتحرك برشاقة وخفه ..

ـ حصان طيب !.. حصان طيب !.. سترى يا (أكسل) أنه ما من شىء أكثر روعة من خيول (أيسلندا) .. لا شىء يوقفها .. لا البرد ولا العواصف ..، فقط لا تضايقها .. دعها بحريتها وستقطع بك ثلاثين ميلاً فى اليوم ..

ـ هذا يناسبنا .. ولكن ماذا عن دليلنا البائس ؟

ـ لا عليك .. هؤلاء الرجال لا يشعرون بالأرض ولا يتعبون أبدًا .. وحتى إذا ما تعب سأعيره جوادى وأمشى أنا ..

* * *

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ظهرًا حين وصلنا إلى قرية تُدعى (إيولبرج) .. ومن هناك بدأنا نتبع طريقًا ضيقًا ، ما بين البحر والمرتفعات .. فى الساعة الرابعة عصرًا صادفتنا عقبة .. هى لسان من البحر يتغلغل عبر اليابسة .. وكانت أمواجه تصطدم بالصخور الشامخة على جانبيه ، ولئن كانت جيادنا جيادًا طيبة إلا أننى لم أدر كيف يمكنها العبور ، قلت لنفسى :

ـ لو كانت ذكية حقًا فلن تحاول أصلاً ..

إلا أن عمى لم ينتظر بل حاول العبور بحصانه .. أبَى الحصان أن يتحرك .. قال له عمى (نعم) إلا أن الحصان قال (لا) ..، ازداد جنون الرجل وضرب الحصان الذى حاول أن يقذفه من على ظهره ، ثم أنه وجد أن الأفضل أن ينحنى على ركبتيه وينسلّ من تحت راكبه تاركًا إياه واقفًا على الأرض !..

جُن جنون عمى إلا أن (هانز) ربَّت على ظهره قائلاً :

ــ فاريسا ..

ــ قارب ؟.. أين ؟..

أشار (هانز) إلى قارب على مسافة منا ..

ــ لماذا لم تقل ذلك ؟.. فلنذهب لنأخذه ..

ــ تيدفاتن ....

ــ آه !.. يجب انتظار المد إذن ..

وهكذا ــ فى السادسة مساء ــ وصلنا قرية (جاردار) .. لم تكن السماء مظلمة ، لأن الشمس لا تغيب عن السماء فى (أيسلندا) طوال شهرى يونيو ويوليو حتى فى الليل .. وفى أحد الأكواخ قضينا ليلتنا لنعاود التحرك مع أول أنسام الفجر ..

بدأ الاحساس بالوحشة يتزايد ونحن نجدّ السير .. لم تعد هناك أشجار ولا حيوانات .. فقط طير هنا أو هناك

يحلق نحو الجنوب ..

وفى قرية اسمها (الفتاناس) قضينا ليلة أخرى ..

كان الإنهاك يقتلنى ، أما عمى فلم يشك إطلاقًا ، مما أثار إعجابى .. أما عن (هانز) فكان ينظر للرحلة كلها على أساس أنها نزهة شيقة ..

واستمرت الرحلة عبر خليج (فاكسا) ثم (بودير) .. وكان (هانز) قد اتفق مع عمى على أن ينال جزءًا من أجره فى كل مساء سبت ؛ لذا ــ وكان اليوم السبت ــ نقده عمى الجزء الأول من الأجر ..، وشرعنا نواصل رحلتنا ، بينما كان عمى يهمس ما بين أسنانه طيلة الوقت .

ــ آه !.. (سنيفل) !.. (سنيفل) العظيم !.. البوابة التى ستقودنا إلى مركز الأرض .. (ساكنوسم) !.. أيها العظيم .. نحن هنا ..

وعلى هذا المنوال وصلنا إلى (ستابى)

صارح عمى (هانز) بأنه يزمع التسلق إلى البركان والنزول إلى القاع عبر فوهته مهما كان بُعد هذا القاع ..

لم يبد (هانز) فارقًا ، لأن كل الأماكن ــ كما يبدو ــ تتساوى عنده ..، أما أنا فقد كان الهلع يقتلنى .. لكن أوان التراجع قد فات منذ فارقنا (هامبورج) .. إن



كان الإنهاك يقتلني ، أما عمى فلم يشك إطلاقًا ، مما أثار إعجابي ..

الخاطر المريع الذى انتابنى هو أننا قد نتسلق (سنيفل) .. وقد ننزل من فوهته .. وقد نصل لمركز الأرض كما فعل ذلك المخبول (هاكنوسم) لكن ما هو الضمان أن هذا البركان لن يثور ونحن فيه ؟.. نعم هو نائم منذ عام ١٢٢٩ .. ولكن هل هذا يثبت أنه لن يصحو غدًا ؟

لا أحب كثيرًا ـ وأنت توافقنى غالبًا ـ فكرة أن أجد نفسى مقذوفًا إلى عنان السماء فى بحر من الحمم الملتهبة ..

وهكذا أزمعت أن أفضى لعمى بمخاوفى ، ولكن بشكل لا يوحى له أننى مذعور ، بل أننى ـ فقط ـ أريد أن أتعلم أكثر عن رحلتنا .. إلا أنه لشدة دهشتى لم يثُر .. وقال :

ـ لقد فكرت فى ذلك كثيرًا ..

ماذا ؟.. لكن هذا معناه .. كلا .. لن يتراجع هذا الرجل أبدًا .. إن هذا أجمل من أن أفكر فيه ..، إلا أنه أردف :

ـ إن البراكين لا تثور هكذا فجأة دون علامات إنذار ، ولقد سألت الكثيرين هنا وهناك منذ وصلنا .. والنتيجة سلبية .. لم يعط (سنيفل) أية علامات تنذر بتجدد ثوراته ..

ثم أنه أشار إلى بخار ساخن يخرج من بين الصخور (وهو الشيء الذى جعلنى أميل لوجهة نظرى المذعورة) وقال :

ــ هذا البخار هو الدليل على صدق كلامى .. لن نخشى شيئًا ..

ــ ماذا تعنى ؟

ــ حين يوشك البركان على الانفجار ؛ يخرج هذا البخار بقوة أكبر من الفوهة ، وليس من بين الصخور .. أما والبخار يخرج بقوته المعتادة من بين هذه الأحجار فلن يثور (سنيفل) فى المستقبل القريب ..!

لقد ربح عمى كالعادة ولم أعد سيد مصيرى ..

وهكذا .. فى اليوم الثانى والعشرين من (يونيو) فى التاسعة صباحًا بدأنا رحلة التسلق إلى فوهة (سنيفل) ..

* * *

يبلغ ارتفاع (سنيفل) خمسة آلاف قدمًا .. ولقد شرعنا نصعد سفحه واحدًا خلف الآخر مما جعل تبادل الكلام مستحيلاً ..

كان الطريق يزداد صعوبة وينحدر لأعلى بزاوية أشد

حدّة .. إلا أن (هانز) كان يمشى فى سلاسة ، كما لو كانت الأرض مسطحة .. أحيانًا كان يختفى عن عيوننا يمينًا أو يسارًا خلف صخرة كبيرة ، وأحيانا كان يضع بعض الأحجار فوق بعضها ، ليجعل منها علامات عند عودتنا ..

كانت فكرة لا بأس بها لكنها ـ كما عرفنا فيما بعد ـ لم تكن ذات نفع !..

توقفنا بعد ثلاث ساعات لتناول بضع لقيمات والراحة الأمر الذى لم يَرُق لعمّى الذى التهم طعامه فى عجلة .. ثم واصلنا المسير الذى غدا شديد الصعوبة ، مما اضطرنا إلى السير فى دروب متعرجة ، وكان معنا ثلاثة حمالين من الوطنيين شرعوا يعاون بعضهم البعض بعصيّهم .. أما عمى فكان يتنقل برشاقة وخفة ، مما جعلنى أدرك أن له باعًا طويلاً فى تسلق الجبال ..

إنها السابعة مساءً .. وقد بلغنا ارتفاعًا قدره ٣٢٠٠ قدم.. فوق سطح البحر .. الجليد من حولنا والبرد يتزايد ، والريح تهبّ عاتية .. طلب عمى من (هانز) التوقف .. لكن دليلنا قال :

ـ أوففانفور ..

قال عمى مفسرًا :

ـ إنه يبغى أن نواصل الصعود .. ولكن لماذا ؟
ـ ميستور ..
عندئذ هتف الحمالون جميعًا فى ذعر حقيقى :
ـ يا .. يا .. ميستور ..!
ـ ماذا يعنون ؟
وهنا أشار عمى إلى كتلة من الصخور والغبار البركانى تتطاير فى الهواء عبر جانب الجبل .. وكانت هذه الكتلة تتجه نحونا ـ ما يسمونه باللغة الأيسلاندية (ميستور) ـ ولم يكن ثمة داع للمزيد من الكلام لأننا هرعنا خلف الجبل متوارين ، على حين هوت هذه الكتلة على المكان الذى كنا به منذ دقائق .. ولولا تحذيرهم لغدونا غبارًا تذروه الرياح ..

* * *

كانت الساعة هى الحادية عشرة مساءً حين وصلنا إلى القمة .. وكان البرد والجوع يمزقاننى ، بالإضافة إلى أن نقص الأوكسجين جعل التنفس مستحيلاً .. وعند قدمىّ كانت شمس منتصف الليل ترسل أشعتها الواهنة فوق الجزيرة ..
معًا تناولنا وجبة بسيطة ثم غفونا .. لعله أفضل نوم حظيت به من زمن بعيد برغم برودة الجو. نوم بلا أحلام..

وفى الصباح أخبرنا (هانز) بالاسم الذى يطلقه سكان (أيسلندا) على القمة التى كنا فوقها .. الاسم الذى توقعته أنا وعمى ..

كان اسمها (سكارتاريس) ..!

* * *

وبدأنا النزول من الفوهة ..

كان اتساعها حوالى ثلاثة أميال .. ويمكنك أن تتخيل منظرها حين تملؤها النيران والصخور الملتهبة !. أما القاع – كما بدا لنا – فلم يكن ليزيد على خمسمائة قدم ، لهذا كان الانحدار سهلاً ويمكن السير عليه دون جهد ..

سار (هانز) فى المقدمة وتبعناه وقد ربطنا بعضنا بالبعض بحبل طويل حتى إذا ما انشقت الأرض الجليدية تحت قدمى أحدنا أنقذه الباقون ، إلا أن (هانز) كان يتحسس الأرض بعصاه للاطمئنان قبل كل خطوة وهو يشعر بالدهشة من أنه لم تحدث مصائب حتى هذه اللحظة على عكس ما اعتاده ..!

وصلنا لقاع البركان .. ومن فوق رءوسنا لمحنا فوهته مرسومة على السماء مستديرة تامة الاستدارة .. ومن خلالها لمحنا قمة (سكارتاريس) تلتمع الشمس عليها ..

أما فى قاع البركان فكانت هناك ثلاث فتحات هى قمم المداخن التى منها كانت نيران البركان تنبثق .. وكانت كل منها تبلغ مائة قدم فى اتساعها .. شعرت بالرجفة وأنا أرمقها ، على حين انتاب البروفسير (ليدنبروك) حمى مفاجئة .. وشرع يركض بين الفتحات يرمقها ويفحصها ويحدث نفسه أمام نظرات (هانز) ورفاقه الذين جلسوا على الصخور .. بالطبع يحدثون أنفسهم أى مجنون هذا ؟!

وفجأة صرخ عمى ..

ـ (أكسل) !.. (أكسل) !.. تعال هنا ..

قالها وهو يرمق صخرة عملاقة تقف فى وسط الفوهة .. فجريت لأرى ما هنالك ..

ـ انظر !

وعلى الصخرة لمحت حروفا محفورة تقادم بها الزمن .. حروفا (رونيه) مألوفة بالنسبة لى .. الحروف التى تشكل ذلك الاسم الشنيع :

ـ (آرنى ساكنوسم) !.. هل ما زلت متشككا ؟!

أصابنى الذهول .. وجلست فوق صخرة أنظر إلى لا شىء .. لم أدر متى أسلم (هانز) عينيه للنعاس .. ولا متى فارقنا الرجال عائدين إلى (ستابى) .. ولا متى غفوت أنا ..

وخلالِ نومى خُيل إلىّ أن الجبل يهتز ..

* * *

لم تشرق الشمس فى الأيام التالية بسبب الغيوم ..

كاد عمى يجنّ لأنه مالم تشرق الشمس فلن يسقط ظلّ (سكارتاريس) ليرينا الفوهةَ المعنيةَ بين الفتحات الثلاث .. فقط أربعةَ أيام أخرى وينتهى شهر (يونيو) ويتأجل مشروعنا إلى العام التالى ..

كان ([illegible]) يرمقنا فى فضول متسائلاً ـ حتمًا ـ عن علة انتظارنا أما أنا فظللت أدعو الله سرًا ألا تشرق الشمس هذا الشهر ..

وفى اليوم الثامن والعشرين أشرقت الشمس .. وبدأت الهضاب تستحِم فى ضوئها الأصفر البارد .. أخذ عمى يرمق ظلّ (سكارتاريس) يتحرك فوق قاع البركان ببطء .. ببطء ..

ثم ـ فى الثانية عشرة ظهرًا ـ سقط الظلّ فوق الفتحةَ الوسطى .. الفتحةَ التى اختارها (ساكنوسمّ) ..

ـ إذن هذه هى .. ! .. هلمّ بنا ..!

وأشار عمى إلى (هانز) ..

ـ فوروت .. ! .. إلى الأمام ..!

الآن تبدأ الرحلة الحقيقية ..

الآن تنتهى مرحلة الإنهاك لتبدأ مرحلة الصعاب .. ، لا تزل الفرصة متاحة لى كى أرفض .. لكن كيف أجرؤ على ذلك أمام (هانز) الذى لا يبدو على استعداد لأن يخاف شيئًا ؟.. كلا .. سأفكر فى (جرويبن) التى تنتظر عودتى المظفرة .. ولأنزل بشجاعة عبر الفتحة .. لكن لا يجب أن أدع الدوار يتملكنى لأننى فيما يبدو لم أتلق ما يكفى من الدروس فى تلك الكنيسة بـ (كوبنهاجن) ..

لم تكن جدران الفتحة التى سننزل منها ملساء .. كانت هنا وهناك صخور حادة تشبه درجات السلم إلا أنه لم يكن ثمة ما تتشبث به أيدينا .. لربما أفادنا حبل نربطه إلى الحافة ، لكن كيف عسانا نحلّه حين نصل لأسفل ؟..

وجد عمى فكرة بسيطة وذكية هى أن يدلّى نصف الحبل إلى أسفل ثم يلفّ الحبل حول صخرة بارزة ويدلّى النصف الآخر ليلحق بزميله ، وهكذا يكون على من يهبط على الحبل أن يستخدم النصفين معًا كأنهما حبل واحد .. وعند الوصول إلى مكان يصلح للوقوف ، فمن السهل جذب نصف واحد من نصفى الحبل لاستعادته بأكمله .. ونكرر العملية ..

، ـ والآن ليأخذ كل منكم ثلثًا من المتاع ويربطه على ظهره ..

ـ ولكن ماذا عن باقى الحبال والثياب ؟

ـ ستُعنى هذه بنفسها ..!

ـ ماذا تعنى ..؟

ـ سترى ..

وبمعونة (هانز) حزم عمى هذه الأشياء فى حزمة كبيرة وقذفها إلى أسفل .. كان باستطاعتى سماع صوتها وهى تشق الهواء .. وصوتها يتضاءل .. يتضاءل حتى تلاشى نهائيًا ..

ـ هكذا .. ! .. والآن جاء دورنا ..

والآن دعنى أسألك بأمانة .. هل يمكن لأى شخص بكامل قواه العقلية ألا يموت هلعًا فى هذه الظروف ؟!.. كيف أتحمل كل هذا ؟

على كل حال .. بدأنا عملية النزول ..

إلى مركز الأرض ..

* * *

٤ ــ أى ممر ؟

بدأنا النزول على الحبل المزدوج متجاهلين الخطر المتمثل فى ألا يتحمل هذا الحبل الرفيع ثقلنا معًا .. شرعت أستعمل عصاى كوسيلة لتخفيف الضغط عن هذا الحبل ، وبعد نصف ساعة وجدنا أنفسنا على صخرة كبيرة مسطحة تبرز من الجدار الرأسى ..

نظرت إلى أسفل ، لكننى لم أتمكن من رؤية أى شىء ..

شرع (هانز) يعيد تعليق الحبل من جديد لنهبط المرحلة التالية التى يبلغ عمقها مائتى قدم .. وبالطبع ــ فى أثناء هبوطنا ــ لم أكن لأهتم بمعرفة نوعية الصخور التى نهبط عليها .. إلا أن عمى ــ بفضول علمى قاتل ــ شرع يتفحصها فى اهتمام .. وقال :

ــ كلما تقدمنا آمنت أكثر أن باطن الأرض ليس حارًا .. وعلى كل حال سوف نرى ..

وكما اعتدت طيلة حياتى تجنبتُ إثارة حنقه .. ولهذا

افترض أننى أوافقه على ما يقول ..

واصلنا النزول .. وبعد ثلاث ساعات كاملة ، لم يكن القاع ظاهرًا لأعيننا بعد .. لكننا استمررنا فى النزول لأسفل .. لأسفل .. لأسفل ، أزجى الوقت بعدّ المرات التى فككنا فيها الحبل وأعدنا تعليقه ، لأعرف إلى أى عمق وصلنا .. وكان عددها أربع عشرة مرة استغرقت منا سبع ساعات ، وبالتالى كنا على عمق ٢٨٠٠ قدم ..

قال عمى وهو يلهث :

ـ لقد وصلنا .

ـ لأين ؟

ـ لقاع البركان ..

ـ إذن لا يوجد مخرج .. لقد انتهت رحلتنا ..

ـ لابد أن هناك واحدًا على يميننا .. لكن سنرى ذلك غدًا ، أما الآن فقد حان ميعاد النوم .. وبالطبع العشاء ..

وهكذا فتحنا حقيبة والتهمنا بعض الطعام ، ثم هيأنا أنفسنا كيفما اتفق ، للنوم فوق الصخور ..

استلقيت على ظهرى وشرعت أرمق نجمًا يتألق عبر الفتحة التى نزلنا منها .. حتى غلبنى النعاس ..

* * *

فى الصباح أيقظنا ضوء النهار الخافت قادمًا من أعلى .. بالطبع لم يكن قويًا ، لكنه سمح لنا برؤية الموجودات ..

قال عمى فى مرح مرعب :

ــ كيف حالك يا (أكسل) ؟.. هل نعمت من قبل بليلة هادئة كهذه فى دارنا العجوز بشارع (كونيشن) ؟.. لا ضوضاء من أى نوع ..

ــ بالطبع هادئة .. هادئة إلى حد مفزع ..

صاح عمى :

ــ هلم .. هلم ! .. إذا كنت تشعر بالرعب الآن فكيف ستشعر فيما بعد ؟

إننا لم نتجاوز بوصة واحدة داخل الأرض !

ــ ماذا تعنى ؟؟ ..

ــ أعنى أننا لسنا حتى تحت مستوى البحر .. إننا فقط نزلنا المسافة التى صعدناها حين تسلقنا (سنيفل) ..!!

ــ حقًا ؟

ــ طبعًا .. انظر إلى (الباروميتر) ..

ــ إنه يشير إلى تسعة وعشرين بوصة ..

ــ هكذا .. هذا هو ضغط الهواء العادى .. وهذا يؤيد

كلامى .. والآن دعنا نتناول وجبة إفطار جديرة برجال ينتظرهم عمل شاق ..!

وأكلنا فى صمت .. بعدها جلس عمى يدون قراءات (الكرونومتر) و (الترمومتر) ، البارومتر) .. ثم قال :

ـ والآن يا (أكسل) هذه هى اللحظة بعينها التى سنبدأ فيها رحلتنا إلى قلب الأرض ..

وأضاء الكشاف الكهربى وكذا فعل (هانز) .. واتجه عمى نحو النفق الموجود على اليمين ودخله ..، وقبل أن أتبعهما رفعت عينى إلى السماء لأرى ــ لآخر مرة فى حياتى ـ ضوء النهار ..

كانت الحمم هى التى صنعت هذا النفق لنفسها عام ١٢٢٩ حين ثار البركان آخر مرة .. وكانت جدرانه مغلفة بطبقة معدنية براقة، مما أكسبه جمالاً لا يُوصف ..

ـ انظر لهذه الروعة يا عمى !

ـ آه !.. أنت تحبها يا (أكسل) .. وإننى لآمل أن ترى أشياء أكثر روعة بالداخل .. فلنتقدم !

كان الأحرى أن يقول : فلننزلق ! لأن الممر كان منحدرًا إلى حدّ لا يوصف ، مما جعل من العسير حقًا ألا ننزلق ..

إلا أن الحرارة لم تزدد إلا أربع درجات داخل النفق حتى بعد ساعتين من المشى . وفى الثامنة مساءً أمرنا عمى بالتوقف داخل أحد الجيوب الصخرية ، فعلقنا مصباحينا على الصخور .

قد يظن القارئ أن الهواء كان ساكنًا ، لكنه كان فى الواقع يتحرك .. وكنت أستشعر هبات من الريح لا أدرى مصدرها ، لأن الجوع والإنهاك كانا يمنعاننى من التفكير المنطق .. إن سبع ساعات من الانزلاق ليست بالأمر الهين ..

كان القلق يمزقنى .. إذ أننا قد أتينا على نصف مخزون المياه الذى نزلنا به ، وكان عمى يعول على الينابيع الجوفية .. لكننا حتى هذه اللحظة لم نجد واحدًا ، لهذا رأيت أن ألفت نظره ، فقال :

ـ هل هذا يثير قلقك ؟

ـ حتمًا .. قلقى ودهشتى .. إن ما معنا من ماء لايكاد يكفى خمسة أيام ..

ـ لا تدع هذا يقلقك .. سنجد الماء وبكميات وافرة ..

ـ متى ؟

حين نفارق حوائط الحمم .. إن ماء الينابيع عاجز عن اختراقها ..

ـ وماذا لو ظلّت هذه الحوائط لفترة طويلة ؟ .. من الواضح أننا لم ننزل كثيرًا بعد ..

ـ وماذا يوحى لك بهذا ؟

ـ لأن الحرارة لم تزدد بعد سوى تسع درجات وهذا معناه أننا لم نهبط سوى ١١٢٥ قدمًا ..

ـ هذا يابنى لو كانت قواعدك الحرارية سارية هنا .. إننى واثق تمامًا بحساباتى من أننا قد هبطنا عشرة آلاف قدم .. ولا شك فى ذلك ..

إن كلام عمى صحيح بلا ريب .. فهو لا يخطئ فى شىء كهذا ، ومعنى ذلك أننا قد تجاوزنا أقصى عمق بلغه إنسان بـ ٦٠٠٠ قدم .. وكان ينبغى أن تكون الحرارة إحدى وثمانين درجةً لا خمس عشرةً ..

وفى اليوم التالى واصلنا السير فى الممر ..

وفجأةً توقف (هانز) ..

لقد كان هناك ممران .. واحد أيمن وواحد أيسر .. وهذا معناه مشكلة .. فأيهما المطلوب ..؟

لم يتردد عمى وإختار أحدهما وشرعنا نمشى فيه .. كان هذا خطأ لكننا لم نعرف ذلك إلا بعد أيام عديدة ..

ولم يكن هذا الممر منحدرًا بل يكاد يكون أفقيًا .. لم



وفجأة توقف (هانز) .. لقد كان هناك ممران .. واحد أيمن وواحد أيسر .. وهذا معناه مشكلة ..

أحب هذا الشعور .. وانتابنى إحساس أن شيئًا مَا ليس على ما يرام ، لكنى كتمت عن عمى هذا الشعور .. لقد مضينا فى الممر ستة أميال حقًا لكننا لم نهبط أكثر من ميل واحد ..

تناولنا العشاء فى صمت ثم أخلدنا للنوم ..

وفى الصباحِ واصلنا مسيرتنا عبر هذا الممر .. هذه المرة كنت واثقًا تمامًا من أنه لا يهبط بل هو بالأحرى يصعد .. لابد أن الأمر كذلك لأنه ـ حين صارت الساعة العاشرة ـ كنت قد بلغت من التعب مبلغًا كبيرًا .. ولم يعد بإمكانى الاستمرار ..

هتف عمى فى نفاد صبر :

ـ ماذا دهاك يا (أكسل) ؟.. لم لا تسرع ؟

ـ يجب أن أتوقف .. لقد هدّنى التعب ..

ـ ماذا ؟ .. بعد ثلاث ساعات فى طريق منحدر ؟

ـ منحدر نعم .. ولكن لأعلى !.. نحن نصعد ، ولن يستغرق الأمر طويلاً حتى نعود إلى (أيسلندا) ثم (كوبنهاجن) ثم دارنا فى (هامبورج) !

إنه طريق جيد للعودة ، لكنه لا يناسب تمامًا غرض الوصول لمركز الأرض ..

لكن عمى هزّ رأسه فى لامبالاة ، بمعنى أنه لا يريد

ان يسمع أكثر .. وواصلنا مسيرتنا المنهكة عبر النفق .. فى الساعة الثانية عشرة بدأت الجدران تتغير .. وبدلاً من الحمم المتجمدة بدأت أرى صخورًا غريبة منسقة فى مجموعات منتظمة .. لا بد أنها كانت تنتمى للحقبة (السيلورية) ..

هتفت فى دهشة مناديًا عمى وأنا أشير إلى ما يحيط بنا من أحجار رملية وأحجار جيرية وأردواز :

ـ انظر يا عماه !

ـ ماذا ؟

ها نحن أولاء قد فارقنا الحمم والجرانيت تحتنا ، ووصلنا إلى حيث حفريات الحيوانات والنباتات .. أى أننا نصعد ..

ـ أتظن هذا حقًا ؟

توقعت أن يصرخ عجبًا ، إلا أنه استمر فى السير دون تعليق ..!

هل فهم مغزى كلماتى ؟ هل هو غير راغب فى الاعتراف بخطئه أم أنه يبغى اجتياز الممر حتى نهايته ؟

على كل حالٍ .. إذا ما كنت مصيبًا سأرى حفريات نباتية وحيوانية تدعم وجهة نظرى .. وبعد مائة خطوة رأيت على الحائط ما يؤكد أننى على حق ..

هرعت إلى عمى لأريه الحفرية التى فى يدى :

ــ أترى ؟ ..

ــ حسن .. هذه حفرية عادية وشائعة .. وعندى منها مئات فى دارى .

ــ لكنها تعنى ..

ــ نعم .. نعم .. تريد القول إننا اخترنا الممر الخطأ وأننا ــ كما تؤكد ــ نصعد بدلاً من أن نهبط .. لكننى لن أتأكد من ذلك إلا عند نهاية الممر ..

ــ أنت محقٌ يا عمى .. محقٌ تمامًا فى حيطتك هذه ..

ثم ابتلعت ريقى وأردفت :

ــ لكن هناك خطرًا يتهددنا .. خطرًا يتزايد فى كل دقيقة ..

ــ ماذا تعنى ..؟

ــ إن الماء يتناقص باستمرار ..

قال عمى فى برود :

ــ إذن سنشرب كميات أقل .. ! .. هذا هو كل شىء ..

* * *

لم يعد لدينا من الماء سوى ما يكفى ثلاثة أيام .. وكنا ماضين فى طريقنا بينما الأحجار لم تزل كما هى .. أحجارًا رملية حمراء . إن الأمر يتضح أكثر

وأكثر .. إننا فى الممر الخطأ إلا أن البروفسير (ليدنبروك) لم يبد أية علامة تدل على الاهتمام .. إما أنه كان يتوقع أن يجد فجاة ممرًا هابطًا لأسفل .. وإما أنه كان يتوقع أن يجد سدًا فى الممر من ثم نعود أدراجنا ..

لكن شيئًا من هذين لم يحدث ..

كان ظمئى يتزايد تدريجيًا حين وجدت أحجارًا سوداء على الجدار .. أحجارًا لامعة تترك بصمات سوداء على يدى حين لمستها بالصدفة .. إنه فحم !

لكن عمى لم يهتم بالأمر كثيرًا حين أخبرته .. وجلس يلتهم طعام العشاء فى صمت ..

كان ما شربناه كافيًا بصعوبة ليروى ظمأنا .. وحين غرق عمى و (هانز) فى النعاس ظللت راقدًا على ظهرى ، أعد الساعات حتى الفجر .. وحتى بدأنا السير مرة أخرى ..

وصلنا لكهف ضخم اتساعه مائة قدم ، وارتفاعه خمسون قدمًا وجدرانه من الفحم .. وظللنا نمشى فيه حتى المساء دون أن نشعر للحظة واحدة أننا ندنو من مركز الأرض ..

هل يمكنك أن تتخيل مدى نفاذ صبر عمى ..؟

وفى السادسة مساءً وصلنا لحائط رأسى بلا فتحات

يسدّ الكهف .. لقد كانت هذه نهاية الرحلة !

ــ رائع ..!

ــ صرخ عمى

ــ على الأقل فهمنا أننا كنا فى الطريق الخطأ وأن (ساكنوسمّ) لم يصل هنا أبدًا .. كل ما علينا الآن هو أن نعود أدراجنا لنأخذ النفق الآخر ..!

ــ بالفعل .. لو بقيت لدينا قوّة ..!

ــ وما المشكلة ؟

ــ المشكلة أننا غدًا لن نجد قطرة ماء واحدة ..!

وهنا ــ ولشدة الغرابة ــ ذكّر (هانز) عمى أن اليوم هو السبت وأن الوقت قد حان لأخذ الجزء الثانى من أجره ..!

* * *

يجب أن نتحرك الآن بأقصى سرعة ..

لا وقت نضيّعه إذا ما كانت أمامنا ثلاثة أيام حتى نصل إلى نقطة تلاقى الممرين ..

وكما قلت لك .. انتهى الماء فى مساء اليوم الأول .. وبالطبع لا يمكننى أن أبين لك كم عانينا من الظمأ .. كم مرة هويت للأرض عاجزًا عن الاستمرار ، فى حين يعيننى عمى أو (هانز) على النهوض .. لكن الطريق

ـ على الأقل ـ كان منحدرًا لأسفل مما سهل رحلتنا .. وهكذا ـ في يوم الأربعاء الثامن من (يوليو) ـ وصلنا إلى نقطة التلاقى ، وقد صرعنا الظمأ والإجهاد ، فارتميت على الأرض منهكا غارقًا في النعاس ..

ـ يا صغيرى البائس !

قالها عمى وهو يحيطنى بذراعه .. ولم أكن قد سمعته يتحدث بهذه الرقة والحنان .. وللغرابة لمحت الدموع تلتمع في عينيه ..

ـ اشرب ..

قالها وهو يقرّب زجاجة الماء من فمى .. هل جُنَ ؟ .. ماذا يعنى ؟ ..

ـ اشرب !..

نعم .. هذا ماء ! .. مجرد جرعة لكنها أعادت الحياة لى ..

ـ هى جرعة ماء .. الأخيرة .. هل تسمعنى ؟ .. الأخيرة .. كنت قد ادخرتها من أجلك .. من أجلك أنت .. ولكم قاومت نفسى كى لا أشربها !

سالت الدموع من عينى تأثرًا ..

ـ آه يا عمى !.. شكرًا ... شكرًا ..

أبعد عمى عينيه عن عينى وقد بدا عليه الخجل منى .. فقلت :

ـ والآن يا عمى .. لقد حان الوقت لنعود أدراجنا ..!

ـ إذن فهذه الجرعة من الماء لم تزدك شجاعة ..

– أصغ إلىّ يا عمى .. لم تزل العودة ممكنة .. أرجوك ..

– أعود ..؟

وبدا لى فى هذه اللحظة كأنه يحدث نفسه فى الواقع :

– أعود بعد كل هذا العناء ، وبعد أن صرنا قاب قوسين من النجاح ؟

– .. ومن الموت ..

– إذن عُد وحدك أنت و (هانز) .. اتركانى هنا لأننى لن أتراجع حتى لو كان علىّ أن أقضى وحيدًا .. هيا .. اذهب .. ! .. اذهب

كان هذا مستحيلاً بالطبع .. وظللنا نتجادل أمام (هانز) الذى شرع يرمقنا فى لا مبالاة ، وقد فهم من حركاتنا بالطبع أن هناك خلافًا مّا بيننا ، وأن كل واحد منا يحاول إقناع الآخر باتخاذ طريق مختلف .. لكن الأمر لم يكن يعنيه كثيرًا .. هو على استعداد أن يعود إذا ما طلب منه عمى ذلك كتابة .. وعلى استعداد أن يستمر إذا ما أراد عمى ذلك منه .. لكم وددت لو أنه استطاع أن يفهمنى .. !

اتجهت نحوه وشرعت أجذبه من يده مشيرًا إلى اتجاه العودة ليفهم ما أريد ... لكنه اكتفى بهزّ رأسه والإشارة نحو عمى قائلا :

ـ سيد !!.

ـ سيد ؟ .. لكنه سيد مصيرك أنت .. يجب أن نعود وأن نأخذه معنا ..

قال عمى فى رزانة :

ـ إهدأ يا (أكسل) وأصغ لما سأقول .. إننا لم نجد ماء فى الممر الأول ، والماء هو مشكلتنا الوحيدة ، لذا سنحاول أن نجد حظًا أفضل فى الممر الثانى ..

هززت رأسى لأقول شيئا إلا أنه قاطعنى :

ـ أصغ للنهاية ـ.. بينما كنت راقدًا فعلت ذلك الشيء الذى كان علىّ أن أفعله من قبل .. مضيت أستكشف الممر .. إننى واثق أنه خلال ساعات سيقودنا إلى صخور يجرى الماء بينها ، إنه الطريق الذي اتخذه (ساكنوسمّ) من قبل وهويحتاج إلى الماء مثلنا طبعًا .. وحيث وجد هو الماء سنجده نحن .. ، لقد كان رجال (كولومبوس) يطالبونه بالعودة ، لكنه طلب منهم ثلاثة أيام فقط .. وقبل أن تنتهى هذه الأيام الثلاثة كانوا قد اكتشفوا (أمريكا) .. سأكون أنا (كولومبوس) هذا العالمّ لكنى لن أطالب بثلاثة أيام بل بيوم واحد .. يوم واحد .. بعده سنعود أدراجنا .. فهل هذا كثير ؟

بدا لى كلامه منطقيًا .. فهززت رأسى موافقًا :

ـ بارك الله فى رجاحة عقلك وصبرك ... إن الوقت ضيق لذلك دعنا نبدأ فى الحال ..

* * *

٥ ـ الرحلة تستمر ...

شرعنا نجوب الممر الجديد يتقدّمنا (هانز) كالعادة ..، وما أن قطعنا مائة خطوة حتى رفع عمى مصباحه يتفقد الصخور .. وهتف :

ـ هذا هو الممر الصحيح .. لا أخطاء هذه المرة .. فإلى الأمام !

وفى الثامنة مساءً لم نكن قد وجدنا أى أثر للماء .. كان الإجهاد والظمأ يقتلاننى لكنى تحاملت على نفسى إلى أن .. إلى أن فقدت كل القدرة لى على الاستمرار وهويت على الأرض صارخًا :

ـ إننى أموت !.. إلىّ .. إلىّ !

عاد عمى وانحنى بجوارى .. وسمعته يقول :

ـ هذا ينهى كل شىء ..

غبت عن الوعى وحين أفقت وجدتهما جالسين جوارى لايتحركان فهل كانا نائمين ؟.. كنت أعرف أنه ما من شىء يمكن عمله ولا شىء يعيننا .. هذا ينهى كل شىء .. حقًا .. لم يعد حتى ترف العودة متاحًا ، لأن ستة أميال من قشرة الأرض تعزلنا عن العالم الخارجى .. حتى لأكاد أشعر بثقلها فوق روحى ..

وفى الظلام سمعت جلبة .. فتحت عينى ببطء لأرى (هانز) ينسل من المكان حاملاً مصباحًا ... إلى أين هو ذاهب ؟.. حاولت أن أنادى .. أن أصرخ .. لكن صوتى خرج مخنوقًا ..

ـ (هانز) قد غادرنا !.. (هانز) !..

لكن هذه الكلمات لم تخرج من حنجرتى .. أهو يفرّ ؟.. كلا .. لابد أنه يعتزم أمرًا ما ، لأنه يتوغل داخل الممر بدلاً من الخروج منه ، وتلك علامة طيبة .. هدأت قليلاً لكنى ظللت أتساءل عن سبب رحيله .. وتصارعت مئات الأفكار السوداء فى رأسى حتى ظننت أنى جننت .. فى النهاية سمعت صوت خطواته .. ولمحته عائدًا حاملاً مصباحه ، ثم اتجه لعمى وهزّ كتفه برفق .. وقال :

ـ فاتّن ..!

لم أكن أفهم الدانمركية ، لكن رنين الكلمة كان مألوفًا .. فصرخت :

ـ ماء !.. ماء !

صرخ عمى متسائلاً :

ـ ماء ؟.. هفار ..؟

ـ نيدات ...!

لقد فهمت !.. فجأة صرت أجيد الدانمركية .. الماء تحت !

وهكذا استرددنا نشاطنا وشعرنا نجدّ السير عبر الممر .. نصف ساعة كاملة ولا أثر للماء .. كاد أملى يموت لكن عمى طمأننى أن الماء قريب .. وأن هناك نهرًا يجرى خلف الجدار بمحاذاتنا لأنه يسمع صوت الماء بوضوح ..

ومرّ نصف ساعة آخر والأمل يلتمع أمام عيوننا .. والصوت يتعالى ، ثم بدأ ينخفض !.. معنى هذا أن هذه هى أقرب النقاط للنهر ومن الحكمة ألا نتحرك أكثر ..

فى هذا المكان جلسنا نصغى لصوت الماء العذب المعذِّب ..!

لم ييأس (هانز) بل شرع يتنقل هنا وهناك يلصق أذنه بالجدار باحثًا عن أعلى نقطة يسمع عندها خرير النهر .. ، ثم أمسك بالفأس وشرع يهشم الصخر .. ياله من ذكى !.. لم تكن لتخطر لى فكرة مماثلة أبدًا .. لكنها خطرة .. خطرة .. فقد ينهار النفق كله فوقنا وقد ينبثق تيار جارف من مياه النهر يجتاح كل شىء .. ولكن .. ليكن ما يكون .. فلن نبالى بشىء .. نريد الماء ولا يعنينا ما يحدث بعد ذلك ..

ساعة كاملة قضاها فى الحفر وأنا وعمى نرمقه فى نفاد صبر عاجزين عن مساعدته ..

وفجأة انبثق تيار من الماء عبر الفتحة ..!

أطلق (هانز) صرخة ألم حين مسه الماء .. وكذا أنا



ساعة كاملة قضاها فى الحفر وأنا وعمى نرمقه فى نفاذ صبر عاجزين

عن مساعدته ..

حين مددت يدى لأشرب .. لقد كان الماء يغلى ..!.

ــ اللعنة !.. إنه ساخن ..

ــ لاعليك .. سيبرد حالاً ..

وبعد دقائق أمكننا أن نشرب .. ياللروعة !.. لايمكننى أن أشرح لك أية نشوة شعرت بها إلا إذا كنت قد جربت الحياة بدون ماء بضعة أيام .. كان الماء مجهول المصدر دافئا .. لكنه ماء !.. ولقد أعاد الحياة لنا حتى أننى ظللت أجرع منه دون حيطة .. وإن سألت عمى :

ــ طعمه كالحديد إلى حد ما ..

ــ عظيم !.. هذا مفيد للصحة ..

ــ هل أنت واثق ؟

ــ طبعًا .. هذا الماء آت من على عمق ستة أميال تحت الأرض أى أنه لم يلوث ... إن (هانز) يستحق أن نطلق اسمه على هذا النهر ..

كان الماء مستمرًا فى التدفق مكونا مجرى صغيرًا عبر صخور الكهف ..

وهكذا أسمينا هذا النهر (هانز باخ) بمعنى (تيار هانز) .. إلا أن أقلنا اهتمامًا بهذا الشرف كان هو (هانز) نفسه الذى لم يتغير هدوءه المعهود .. ثم إننى قلت لعمى وأنا أحاول سد الثقب :

ـ يجب أن نمنع هذا الماء من التدفق بعد أن نملأ زجاجاتنا ..
ـ ولِمَه ..؟
ـ لأن ...
وتوقفت لأننى لم أجد سببًا منطقيًا .. لهذا قال عمى ؛
ـ لندعه يتبعنا ويتدفق بشكل طبيعى ، وسيكون مرشدنا عبر الممر ، ويمدنا بالماء كلما احتجنا إليه ...
ـ هتفت ؛
ـ إنها فكرة رائعة .. وطالما ظل هذا المجرى يرافقنا، فلا يوجد سبب يمنعنا من النجاح ..
ضحك البرفسير فى مرح ؛
ـ هانتذا تقترب من الصواب يا بنى !
ـ أنا لاأقترب من الصواب ، بل وصلت إليه فعلاً .. هيا بنا !
ـ ليس قبل بضع ساعات من الراحة ..
لقد أنستنى الحماسة أن الليل قد جاء ..، وهكذا أخلدنا للنوم أخيرًا ..

* * *

حين صحوت فى الصباح دهشت للحظة من أننى لا أحس الظمأ ، ثم تذكرت أحداث الليلة الماضية فهدأت بالاً ، وشرعت أتناول طعام الإفطار بمعنويات عالية .. كيف لا ينجح عمى إذا ما كان فى حوزته دليل مثل (هانز)

ورفيق رحلة مثلى ؟.. إن كل ما علينا هو أن نستمر فى النزول .. فأى شىء أهون من ذلك ؟!..

فى الممر واصلنا الرحلة .. لكنه كان يتعرج ذات اليمين وذات اليسار ، حتى أننا سرنا مسافة هائلة خلال يومين دون أن نهبط كثيرًا فى الواقع ..

وفى يوم الجمعة ـ العاشر من يوليو ـ وجدنا حفرة هائلة تبدو بلا قاع عند أقدامنا ، وقد أثار منظرها الرعب فى قلبى لكن عمى سُرّ كثيرًا لدى مرآها ...

ـ رائع !.. ستأخذنا هذه مسافة هائلة لأسفل .. ولن تخيفنا الصخور البارزة من الجدران لأنها ستعمل كدرجات السلم ..

كان النزول سهلاً لأن الدرجات كانت منتظمة كأنما نحتت بيد إنسان ، وكنا نتوقف من حين لآخر لتناول الطعام والشراب من المجرى المائى الذى غدا الآن يتساقط من أعلى علينا ..

لقد هبطنا خمسة عشر ميلاً تحت سطح الأرض حتى هذه اللحظة .. واليوم هو الثانى عشر من يوليو ...

وحين أخبرنى عمى أننا قطعنا ـ بحسب البوصلة ـ مائة وخمسين ميلاً باتجاه الجنوب الشرقى شعرت بدهشة ، وسألته :

ـ معنى هذا أننا لم نعد تحت (أيسلندا) ..؟

ـ هل تعتقد هذا ؟

ـ يمكننا التحقق من ذلك ...

وأخذت الخريطة منه وقمت ببضع عمليات حسابية أكدت لى وجهة نظرى ..

ـ لقد عبرنا (كيب بورتلاند) أى إننا الآن تحت البحر ...!

ـ رائع !.. تخيل أية روعة !

أما أنا فلم ابتلع تمامًا فكرة أن أمشى تحت قاع البحر .. على كل حال فالأمور تتساوى بالنسبة لنا سواء كنا تحت قاع الأطلنطى أو تحت هضاب (أيسلندا) .. فلا فارق بين صخور وصخور لانرى سواها .. لقد نسيت تمامًا كل شىء عن النجوم والشمس والشوارع والبيوت ..

وتستمر الرحلة ...

إلى أن جاء اليوم الذى أخبرنى فيه عمى أننا الآن على عمق ثمانية وأربعين ميلاً .. فقلت فى حيرة :

ـ لحظة يا عمى .. إن المسافة من سطح (أيسلندا) إلى مركز الأرض هو ٤٧٥٠ ميلاً ... أليس كذلك ؟

ـ بلى ..

ـ لنقل إنها ٤٨٠٠ ميل .. ونحن قطعنا جزءًا من مائة فى عشرين يومًا .. أى أن الرحلة ستستغرق ٢٠٠٠ يوم .. أى خمسة أعوام ونصف !!

صمت عمى لحظة ، ثم قال بغضب :

ـ من أدراك أن أرقامك صحيحة ؟.. ماذا يؤكد لك أن تستمر الرحلة على نفس المنوال ؟.. ثم إن هناك من سبقنا إلى هذا ، وحيث نجح هو سننجح نحن ..

ـ أتمنى ذلك ولكن من حقى أن ...

ـ أن تخرس يا (أكسل) وتريحنى من حماقتك !

وهكذا .. خرست ..

قال عمى وهو يشير للبارومتر ليبعد تفكيرى عن خواطرى السوداء :

ـ انظر إلى هذه القراءة ... ماذا ترى ؟

ـ أرى ضغطًا جويًا هائلاً ..؟

ـ وبرغم هذا لانعانى منه ، لأن أجسادنا قد اعتادته .. هل تشعر به ؟

ـ مجرد ألم فى أذنى (*) لا أكثر ...

ـ هذا لاشىء .. وسيزول بمجرد أن تتنفس بسرعة لدقيقة ..

ـ نعم بالفعل !.. وهل لاحظت إلى أى حد عدا الصوت نقيًا واضحًا ؟

ـ طبعًا ..

(*) راجع مقدمة الرواية .

- إذن فالهواء يزداد ثقلاً كلما نزلنا أكثر .. حتى يغدو وزنه كالماء ؟..

- هذا محتم ..

- إذن كيف نستطيع الحركة فى هواء كهذا ؟..

- سنملأ جيوبنا حجارة عندئذ ..!.. هذا كل شىء ..!

إن عمى - حقًا - يملك إجابة مفحمة على كل سؤال .. لكن الحقيقة العلمية هى أن الهواء سيغدو صلبًا فى لحظة ما .. ومن الصعب أن أتخيل نفسى أتحرك فى هواء صلب !.. لكننى لن أعاود الحديث عن (ساكنوسم) اللعين .. الذى قام برحلته فى القرن السادس عشر قبل اختراع (البارومتر) .. فكيف عرف أنه قد بلغ مركز الأرض حقًا ؟!

* * *

لم يحدث شىء ذو بال فى الأسبوعين التاليين لمحادثتنا هذه ..

وفى اليم السابع من أغسطس كنا على عمق تسعين ميلاً تحت الأرض .. وكنت أسير فى المقدمة ..

وفجأة .. التفت خلفى فوجدت نفسى وحيدًا ..!

قلت لنفسى :

- فليكن .. لقد أسرعت أكثر من اللازم ، أو هما قد تعثرا ... فلأعد لهما ولحسن حظى أن الطريق ليس شديد الانحدار ...

وبدأت أعود أدراجى .. ولكنى ـ وبعد ربع ساعة ـ لم أجد أحدًا .. ناديت فلم أسمع ردًا ..

وهنا بدأ الهلع يتملكنى ...

فلتهدأ .. ستجدهما ثانية .. لا يوجد طريقان وأنت كنت فى المقدمة وبالتالى لن يكون عليك سوى أن تعود .. لا يوجد احتمال ثان ... ومضيت عائدًا نصف ساعة آخر دون جدوى .. لا صوت ...

كلا ..!.. لا أصدق لحظة أننى قد فقدت طريقى وأننى وحيد .. لا يوجد سوى ممر واحد .. وحتمًا سأجدهما إلا إذا كانا شاردى الذهن وعادا للبحث عنى .. لكن حتى هذا يمكن التغلب عليه بأن أسرع قليلاً ..

ولكن .. هل حقًا كنت أسبقهما ؟.. بالطبع .. (هانز) كان خلفى ثم عمى ..

إن الشكوك تغزو روحى .. لكننى لم أكن لأضل طريقى طالما أن مجرى الماء يجرى جوارى ويقودنى ..

قررت أن أغسل وجهى لأنتعش قليلاً وانحنيت لأقبض كفى على الماء لكن يدىّ لم تمسّ سوى الجرانيت ..!.. ليس هناك مجرى مياه عند قدمىّ ...!!

* لا أستطيع هنا أن أصف ذعرى ...

لقد دفنتُ حيًا ..!.. سأموت جوعًا وظمأ وبردًا ..

لا بد أن الممرّ قد تفرّع فى نقطة مّا لم أشعر بها .. وتتبعْتُ أنا الاتجـاه الخطـأ على حين سـار المجرى فى اتجاهه الصحيح حاملاً معه صديقىّ ..

ولكن كيف أعود ؟.. لا أثر يهدينى .. لقد فكـرت مرارًا ومرارًا بلا جدوى .. أنا ضائع ..!.. ضائع ويجب أن أترك كل أمل ..

وبالطبع أستطيع أن أتخيل تعاسـة عمـى وهو يبحث عنى بلا طائل .. عمى المسكين ! ، والآن ـ وقد ضعت تمامًا ـ شرعت أصلّى داعيًا الله أن يرأف بحـالى أنـا الذى لم أصلّ منذ أعوام ...

وتدريجيًا بدأ الذعر يفارق روحى ...، والتعقّل يعود ...

إن معى من الطعام والشراب ما يكفـى لثلاثـة أيام .. ومن الحماقة أن أنتظر الموت فى مكانى ...، فلأتحرك .. ولكن فى أى اتجاه ؟!... إلى أعلى بـالطبع ... هذا هو أملى فى أن أجد نقطة التفرع ..

وليكن شاغلى الأكبر أن أجد نـهر (هـانز بـاخ) مـرة أخرى ..

* * *

ظـللت نـصف سـاعة كـاملاً أسير صـاعدًا النـفق .. محاولاً أن أستعيد شكل الصخـور أو أى شىء ... ثم

فهمت أن النفق الذى أسير فيه لن يقودنى لأى مكان .. لأنه مسدود ..

هويت جوار الحائط مفترشًا الصخور ...

لا جدوى ..!.. إن ميتة شنيعة تنتظرنى لا محالة ..

إن المصائب لا تأتى فرادى .. وها هو ذا مصباحى يضعف ويتراقص ضوءُه من جراء سقطتى .. والآن - فى أية لحظة - سيولّى الضوء للأبد تاركًا إياى وحيدًا فى غبشة الظلام ...

ها هو ذا ..! لا ضوء ..! دوت صرختى الملتاعة فى الظلام .. الظلام البكر الاولىّ .. ظلام .. الظلام ...

شرعت أجرى .. أتحسّس الصخور .. أصطدم بها .. أتعثر .. أنهض .. ألعق الدم السائل على وجهى .. أين أذهب ؟.. وأين أنا ؟..

ساعات لاحصر لها مرت علىّ وأنا أتحرك كالذبابة فى كل مكان ، وفى النهاية خارت قواى وهويت - كجثة - جوار الحائط فاقدًا إحساسى بالعالم كله ..

* * *

بدأت أفيق مدركًا - فى هلع - أننى لم أمُت بعد ...

وهنا سمعت ضوضاء تصطدم بأذنى .. ثم تخفت وتبتعد ...

من أين تأتى؟.. حتمًا من مكان ما تحت الأرض .. من انهيار صخرى أو اصطدام غازات بعضها بالبعض ..

وهنا عادت الضوضاء .. كأنها كلمات .. كلمات لا أعرف لها معنى لكنها كلمات .. وليست مجرد أصوات عشوائية ..

اهتززت من فرط الانفعال ...

هل هو خيال ؟.. لا .. إنه شخص ما يتكلم لا شك فى ذلك ..

أكاد أسمع كلمة تتكرر .. كلمة كأنها تقول (فورلوراد) .. ما معناها ؟ ومن يتحدث ؟.. هل هو عمّى أم (هانز) ؟.. وهل يسمعاننى ما دمت أسمعهما ؟.. ناديت بأعلى صوتى:

ـ هنا !.. هنا !

وانتظرت هنيهة منتظرًا دون جدوى ..

ظللت أنتقل جوار الحائط مصيخًا السمع حتى وجدت نقطة يدوى الصوت كأوضح ما يكون .. (فورلوراد .. فورلوراد) .. ثم سمعت اسمى .. هذا صوت عمّى حتمًا .. لا بد أن (فورلوراد) كلمة دانماركية يرددها (هانز) ..

والآن .. لاوقت لدىّ أضيعه .. يجب أن أناديهما قبل أن يبتعدا .. لهذا صرخت بأعلى صوتى :

ـ عمى ليدنبروك !!..

يبدو أن الهواء بطىء فى نقل الصوت هاهنا .. إن الهواء الثقيل هو السبب .. إنه ينقل الصوت أعلى ، ولكن أبطأ مما على سطح الأرض ..

ـ (أكسل) !.. أهذا أنت ؟

....

ـ نعم !

....

ـ أين أنت ؟

....

ـ ضائع فى ظلام مدلهم !

....

ـ (أكسل) !.. عزيزى .. كن شجاعًا ... لاتتكلم !.. لقد بحثنا عنك فى كل مكان ، وأطلقنا رصاص بندقيتينا علّك تسمع .. لكننا لا نستطيع أن نتقابل .. ولا نعرف مكانك ... لهذا .. سنعتمد على الصوت ..

....

ـ عمى !.. هل معك ساعة الإيقاف ؟

....

ـ نعم ...

....

ـ خذها ..!.. ناد اسمى واضغط زر التشغيل .. وبمجرد أن أسمع أنا صوتك سأنادى اسمك .. وهكذا تضغط الزر ثانية .. وسيكون الوقت الذى يستغرقه صوتك وصوتى فى التنقل مقسومًا على اثنين ، هو الوقت الذى يستغرقه الصوت لقطع المسافة بيننا ...

....

مستعد ؟

....

ــ نعم ...

....

ووضعت أذنى لصق الحائط .. وما إن سمعتُ كلمة (أكسل) حتى صرختُ (ليدنبروك) .. وانتظرت رد عمى:

ــ أربعون ثانية ! أى أن المسافة بيننا يقطعها الصوت في عشرين ثانية .. وسرعة الصوت ١٠٢٠ قدمًا فى الثانية ، أى أن المسافة بيننا تقترب من أربعة أميال .. (*)

....

كدت أبكى من خيبة الأمل إلاّ أن عمى صاح ..

ــ ليست مسافة مستحيلة يا (أكسل) ..!

....

ــ لكن هل أصعد أم أهبط ؟

....

ــ اهبط .. لأننا قد وصلنا إلى مكان واسع تجرى عبره

(*) هنا وقع المؤلف فى خطأ حسابى صغير لاحظه الكاتب الروسى (ياكوف بريلمان) .. إن كثافة الهواء تزيد سرعة الصوت ، وبالتالى فإن المسافة بين البروفسير و (أكسل) أكبر من أربعة أميال بكثير .. وحسابها يتوقف على معرفة كثافة الهواء على هذا العمق ... (والمفروض إنها كبيرة) .

عدة ممرات ... ولا بد أن الممر الذى أنت فيه يقود إلى هنا .. ازحف .. امش .. عبر الممر الزلق .. ولا بد أن تجدنا ننتظرك فى النهاية ..

....

ـ وداعًا عمى .. وأرجو أن نلتقى ثانية لأننى لن أسمعكما متى غادرت هذا المكان ...

....

حمدت الله على أن قاد خطاى إلى المكان الوحيد الذى يمكننى فيه أن أسمع عمى عن طريق ظاهرة صوتية معروفة تجعل الصوت العادى ينتقل بشكل أفضل.. لقد رأيت ظاهرة مماثلة فى كاتدرائية (سان بول) فى لندن .. وفى كهوف (صقلية) وممراتها قرب (سيراكوز) ..

المهم الآن أن أبدأ الزحف .. إن الممر شديد الانحدار حتى أننى كنت أتدحرج على صخوره .. أتدحرج .. أتدحرج ..

وفقدت وعيى حين اصطدم رأسى بصخرة حادة ..

ولم أدر بشىء بعدها ..

* * *



إن الممر شديد الانحدار حتى أنني كنت أتدحرج على صخوره ..
أتدحرج .. أتدحرج

٦ ـ بحر الأعماق ..

حين أفقت وجدت نفسى فى مكان مظلم ، وعمى يحدق فىّ !..

فتحت عينى ، فصرخ فى لهفة :

ـ إنه حىّ !.. حىّ ..!.. حمدًا لله على نجاتك !

ثم جاء (هانز) .. وبدا على وجهه الساكن تعبير قوى من الرضا .. وقال :

ـ جود داج .. (نهارك سعيد) ..

ـ ونهارك أنت أيضًا سعيد يا (هانز) !.. والآن ياعماه .. أين نحن ؟

ـ غدًا يا (أكسل) .. غدًا .. فاليوم أنت مريض ورأسك جريح إلا أننى سأعنى به .. فقط نم .. وغدًا ستعرف كل ما ينبغى أن تعرفه ..

ـ على الأقل قُل لى فى أى يوم نحن وأية ساعة ؟

ـ إنها الحادية عشر مساء يوم الأحد .. التاسع من أغسطس .. والآن نم .. فلن أجيب عن أسئلتك حتى الغد ..

* * *

عندما استيقظت من نومى كنت فى كهف متسع رائع الجمال .. والأرض مغطاة برمل أبيض نظيف .. وثمة ضوء ما قادم من فتحة ضيقة .. وكان هناك صوت غامض كهدير موج البحر آتٍ من بعيد ..

هل أنا حقًا متيقظ ؟ أم ما زلت أحلم ؟.. لا يمكن لحلم أن يبدو واقعيًا إلى هذا الحدّ ..

هل أنا على سطح الأرض ؟

هل تخلّى عمى – أخيرًا – عن استكشاف الأرض ..؟

كنت غارقًا فى هذه الأسئلة حين دخل عمّى وحيّانى .. وأبدى سروره من أننى استعدت قواى .. ثم قدم لى طعام الأفطار ..

– عمّى .. هل أنا حقًا بخير ؟

– بالطبع .. لا شىء بك ..

– ألسنا على سطح الأرض ؟

– نعم ..

– إذن أنا قد جننت حتمًا إذ أرى ضوء النهار وأسمع الرياح ..

– أهذا هو ما يقلقك ؟

– طبعًا ... اشرح لى ..

– لن أشرح شيئًا لأنى لاأملك تفسيرًا .. سترى بنفسك أن علماء (الجيولوجيا) لايعرفون أى شىء .. كل معلوماتهم غير دقيقة ..

إذن .. لنذهب فى الحال ...

ـ كلا يا (أكسل) .. إن الهواء الطلق سيؤذيك حتمًا ..

ـ هواء طلق ؟!

ـ بالطبع .. ويجب أن نبحر كذلك !..

ـ نبحر ؟!

وكان انفعالى قد وصل حدًا لا يوصف مما جعل عمّى يطلق سراحى ، وقد أدرك أن منعى سيؤذينى أكثر من تركى أستريح ..

فى البدء كان الضوء ساطعًا إلى حدّ أننى لم أر شيئًا .. وحين فتحت عينى .. لم أستطيع أن أفهم شيئًا على الإطلاق ..

ـ هذا بحر !

ـ قال عمى فى هدوء :

ـ نعم .. بحر (ليدنبروك) .. هكذا أسميته على اسمى ...

كان أمامى بحر حقيقى له شاطئ حقيقى من الرمال البيضاء .. وريح هادئة تهب ..، يترقرق كل هذا فى ضوء أبيض هادئ بارد ليس مصدره القمر ولا مصدره الشمس .. فمن أين يأتى ؟

وكانت هناك سماء تملؤها السحب فوق كل هذا .. لكننى كنت أدرك أنها ليست سماء حقيقية .. لابد أنه

فوق هذه السحب يوجد سقف هائل من الجرانيت على ارتفاع لايقل عن تسعة أميال ..

وكان عمّى ـ الذى اعتاد هذا المشهد ـ يقف ساكنا جوارى .. على حين انحدر مجرى الماء (هانز باخ) رفيق رحلتنا ليصبّ فى البحر ، وكأنه قد اعتاد ذلك من بدء الخليقة ..

ـ يحزّ فى نفسى أن نفارقه الآن !..

ـ وماذا فى ذلك ؟.. إن مجارى المياه تتشابه كلها ..

قالها عمّى فى نكران جميل واضح ..

وهنا لمحت ـ على بعد خمسمائة خطوة ـ غابة !.. من الأشجار الشامخة .. ولكنها شديدة الغرابة .. أشجار بلا أوراق ولا تداعبها الريح .. دنوت منها لأعرف كنهها ، فسمعت عمّى يقول :

ـ إنه (عش الغراب) ..!

على أننا على البعد لمحنا أشجارًا أخرى من تلك التى عرفتها الأرض مُنذ ملايين السنين و تجهلها الآن .. بل ولمحنا عظامًا لحيوانات مريعة كالتى عرفتها مُنذ خمسين مليون سنة ..

إن هذا الكهف مُتحف حقيقى ..!

وجلست على صخرة أرمق منها هذا الساحل الممتد أمام عينى أكاد أتوقع أن أرى سفنًا أو زورقًا .. لكننا ـ بالطبع ـ كُنّا الشىء الوحيد الحىّ فى هذا العالم السفلى ..

ما هو هذا البحر ؟.. إلى أين يمتد ؟.. هل سنرى الجانب الآخر منه ؟

فى الصباح نزلت لأسبح فى هذا البحر (المتوسط) وهو ـ بالمناسبة ـ اسم مناسب تمامًا له لأن (متوسط) تعنى أنه يقع فى وسط الأرض .. وعدت لأتناول إفطارًا شهيًا ، حين قال عمّى :

ـ هذا هو وقت المدّ ..

ـ المدّ ؟..

ـ طبعًا .. إن هذا البحر لا يختلف عن باقى البحار .. وهو مضطر لأن يستجيب لجذب الشمس والقمر .. إنها قوانين (الفيزياء) الصارمة ..

ـ وما هو عمقنا الآن يا عمّى ؟

ـ مائة ميل .. وقد ابتعدنا ألفًا وخمسين ميلاً عن (أيسلندا) ..

ـ إذن نحن الآن تحت (سكوتلندا) ؟

ـ حتمًا .. ومن الضرورى أن نعبر هذه البحيرة باحثين عن ممر آخر نستكمل به رحلتنا ..

ـ وكيف نعبرها ؟... هل توجد سفينة ما تنتظرنا ؟

ـ لا سفن يا بنى .. بل طوف قوى مريح ..

ـ طوف ؟.. ولكن من أين ؟..

ـ إن (هانز) يصنعه الآن ..

ـ (هانز) ؟.. وكيف استطاع قطع الأشجار ؟
ـ هو لم يحتج لذلك ... اتبعنى لترى ...
وتقدمنى عمّى إلى مكان على الشاطئ خلف بعض الصخور لأجد (هانز) يعمل فى بناء الطوف ، الطوف الذى كان ـ لشدة دهشتى ـ على وشك الانتهاء الآن .. ومصنوعًا من خشب عجيب الشكل ..
ـ عمّى .. أى نوع من الخشب هذا ؟
ـ خشب حفرى طبعًا .. خشب تحجّر بفعل مياه البحر ..
ـ إذن هو ثقيل كالحجارة ولن يطفو ..
دون كلمة أمسك عمّى واحدة من هذه الأخشاب وألقى بها فى الماء .. فهبطت .. ثم عادت تطفو فى رزانة ..
ـ هل اقتنعت ؟
ـ لا أصدق لكنى اقتنعت ..
وانتهى الطوف فى مساء اليوم التالى بفضل مهارة دليلنا .. وبعد نصف ساعة كان يسبح فوق مياه (بحر ليدنبروك) ..

* * *

شرعنا نمخر المياه و (هانز) يتحكم فى اتجاهنا بوساطة دفة صغيرة اصطنعها لنا .. أما شراعنا فكان سجادة صغيرة علقناها على سارية صغيرة فى منتصف الطوف ..

كان الطوف متينا .. ولقد وضعنا عليه طعامنا وأجهزتنا ومتاعنا والكثير من الماء دون قلق ..

أما الريح فكانت قوية بشكل غير عادى بسبب ثقل وزن الهواء ، مما جعلنا نتحرك بسرعة تسعين ميلاً فى اليوم .. وتوقع عمّى أننا سنصل سريعًا إلى الجانب الآخر .. وطلب منى أن أدون يوميات تفصيلية عن اتجاه الريح وسرعتنا والمسافة التى نقطعها ..

الجمعة ١٤ أغسطس :

الريح شمالية غربية .. لقد اجتزنا مسافة تسعين ميلاً بعيدًا عن الساحل .. لم تتغير شدة الضوء .. السحب فى السماء لها لون الفضة .. درجة الحرارة اثنان وثلاثون درجة ..

جرب (هانز) أن يربط قطعة من اللحم فى سنارة ورماها بحبل إلى الماء .. وطفق ينتظر ...

وهنا ـ ولدهشتنا ـ شرع شىء ما يجذب السنارة فجذبها (هانز) سريعًا ، وكانت هناك سمكة تتدلى منها .. سمكة لها رأس مسطح مستدير .. وليس لها أسنان ولا عينان ولا ذيل .. أما جسدها فمغطى برقائق عظمية سميكة ..

ـ ما أغربها سمكة !

قال عمّى ، وهو يتأملها :

ـ بالفعل .. إنها سمكة منقرضة من ملايين السنين .. سمكة من العصر (الديفونـى) ..!.. وإنها لمعجزة أن نجدها حية ترزق ..

شرع (هانز) يجرب حظه مرارًا .. وفى كل مرة يجد أسماكًا أخرى كلها ـ أو كنا نظن أنها ـ منقرضة .. لكنها صالحة كى تدخل قائمة طعامنا بكل ترحاب ..

إن هذا السمك لدليل يثير الرعب ..

ألا يعنى ذلك أن هناك احتمالاً أن نلقى بين لحظة وأخرى واحدة من تلك الزواحف المريعة التى عرفتها الأرض من ملايين السنين ؟!

بدأ هذا الهاجس ينغص علىّ حياتى ويملأ لحظات شرودى بالكوابيس والوحوش المفزعة ...

السبت ١٥ أغسطس :.

لم يتغير شىء .. وما من أرض على مرمى البصر ..

عمّى يكاد يجن غيظًا .. وهو ما لم أفهمه .. إن الرحلة تمضى بسرعة وسلام ، فماذا يضايقه ؟..

ـ هل هناك شىء ياعمّى ؟

ـ بل لا شىء .. وهذا هو ما يضايقنى ..

ـ لكننا نتحرك بسرعة ..

ـ نعم بسرعة .. لكن هذا البحر لن ينتهى .. ونحن لا نهبط .. أى أن كل هذا وقت ضائع ..

ـ ولكننا نقتفى أثر (ساكنوسمَ) .... و ...

صرخ فى عصبية :

ـ هذه هى المشكلة !.. هل حقًا نحن فـى مسـار (ساكنوسمَ) ؟.. هل قابل هذا البحر ؟.. هل عبره ..؟.. لا دليل على ذلك ..

قلت فى هدوء :

ـ على كل حـال لا داعى للقلق .. إن كل مـا نـراه جديد .. والرحلة تسير على ما يرام تمامًا ..

ـ لكننا لا نهبط !!

وفى هذه اللحظة ذكرنـا (هـاتز) أن هذا هو مسـاء السبت وأنه يجب أن يتقاضى أجر الأسبوع !

* * *

الأحد ١٦ أغسطس :

كعادته حـاول عمّى أن يسبر عمق البحر .. أمسك بمعول ثقيل وربطه بالحبل وبدأ يدلـى بـه فـى المـاء .. انتهى الحبل ولم يظهر أن هناك عمق لهذا البحر ..!

إلا أن شيئًا أثـار قلقنـا حين رفعنـا الحبل .. إذ أشـار (هاتز) إلى علامات معينة على قبضة المعول الخشبية .. وهتف :

ـ تاندر !..

لم أفهم .. لكن عمّى صاح :

ـ أسنان !

الاثنين ١٧ أغسطس :

لم تزل فكرة الأسنان لا تبرح خيالى .. ظللت أرمق البحر فى قلق ، ثم بدأت أتفحص الأسلحة لأطمئن على أنها بحالة جيدة .. لاحظ عمّى ما أفعله فابتسم كأنه يقول : إننا نشترك فى نفس الفكرة ..

يجب أن نكون حذرين ...

الثلاثاء ١٨ أغسطس :

جاء الليل أو بمعنى أدق شعرنا بحاجتنا للنوم ..

استيقظت على صدمة مروعة .. لقد ارتفع الطوف بقوة ما .. ثم هوى فوق الأمواج مرة أخرى على بعد مائة قدم ..

أشار (هانز) إلى جسم عملاق يتحرك علوًا وهبوطًا على مسافة منا .. فصرخت :

ـ إنه خنزير بحر عملاق !

قال عمّى وهو ينظر فى نفس الاتجاه :

ـ حقًا .. وهناك سحلية مائية هائلة الحجم كذلك ...

ـ وتمساح ضخم .. انظر إلى أسنانه !..

ـ هناك حوت كذلك !.. إن الماء ينبثق من نافورته ..

أدار (هانز) الدفة ليهرب من حديقة الحيوانات العملاقة هذه .. لكنه فوجئ بحيوانات أخرى آتية من الجهة اليسرى .. سلحفاة مائية .. وأفعى طولها ثلاثون قدمًا ..

لقد غدا الهرب مستحيلاً .. إن هذه المخلوقات تتحرك جيئة وذهابًا حولنا .. ولا جدوى من إطلاق الرصاص لأن جلد هذه الأشياء لن يكون أقل سمكًا من الدروع ..

وهنا هزّ (هانز) رأسه .. وهتف :

ــ تفا ...!

ــ يقول إنهما حيوانان فقط !

ــ إنه يهذى يا عمّى ...

ــ لا .. هو مصيب .. حيوانان أحدهما له فم خنزير بحر ورأس سحلية وأسنان تمساح وهو حيوان شنيع اسمه (إكثيوسوروس) ..

ــ والآخر ؟

ــ حيوان ذو جسم سلحفاة وعنق أفعى اسمه (بليسيوروس) .. وهما على وشك الدخول فى صراع .. نعم .. انظر !..

لقد التحم الحيوانان فى صراع شرس لا يوصف .. وأخذت الأمواج تتحرك كالجبال نحونا ، لكننا لم نكن نملك سوى أن نتجمد فى أماكننا .. ساعتين كاملتين من

القتال المريع حتى تحرك الحيوانان غائصين تحت الماء غائبين عن عيوننا ..

وفجأة انبثق (البليسيوروس) من تحت الماء ..

الدم ينزّ من جروحه ورأسه تتمايل هنا وهناك .. ثم هوى فوق سطح الماء فاقد الحياة ... أما الآخر فاختفى ..

هل مات ؟... هل سيعود ؟.. هل ينتظرنا تحت الأمواج فى هذه اللحظة ؟

لم نجد إجابة لهذه الأسئلة المفزعة ..

* * *

الأربعاء ١٩ أغسطس :

وقف (هانز) على قمة الصارية يرمق الأفق .. وقد بدا أن هناك ما يثير اهتمامه .. فقال عمّى :

ــ إنه يرى شيئًا ما ..

ــ أظن هذا ..

ثم إن (هانز) نزل إلينا وأشار نحو الجنوب ..

ــ دير نير ...

ــ أسفل هناك ؟.. فلنر ما يريد ..

ونظر عمّى فى حيرة تجاه الجنوب .. ثم هتف :

ــ ثمة تيار مائى قوى .. نافورة تندلع من الماء إلى أعلى ..

ــ أتراه وحشًا آخر ؟

ــ ربّما ..

ــ إذن دعنا نفرّ ..

ـ كلاً .. ليس قبل أن نرى ما هنالك ..

وهكذا ـ مرغمًا بالطبع ـ شرعنا نقترب من هذه النافورة .. أى نوع من الحيوانات يمكنه ذلك ؟..

وفى الثامنة مساء كنا قد اقتربنا جدًا .. كان شيئًا ضخمًا كالجبل وأمواج البحر ترتطم به والماء ينبثق منه إلى ارتفاع خمسمائة قدم ، ثم يتساقط على شكل مطر فوق رءوسنا ..

ـ ما هذا يا عمّى ؟

لم يرد عمّى .. فى حين انتابنى الهلع .. أى شىء هذا ؟.. وهنا وقف (هانز) مشيرًا إلى الخطر .. وصاح وهو يبتسم فى سخرية :

ـ هو لم !

صرخ عمّى :

ـ جزيرة ..!.. مجرد جزيرة !.. وهذا الماء نافورة طبيعية تنبثق منها .. وهى تبدو كحوت عملاق نائم ..

وشرعنا ندور حول الجزيرة نتأملها .. وأسماها عمّى باسمى .. ثم أمر (هانز) بمواصلة الرحيل ...

* * *

الجمعة ٢١ أغسطس :

كنا الآن تحت انجلترا وعلى بعد ١٨٠٠ ميل من

(أيسلندا) .. بدأت الريح تزداد قسوة وبدا أن الجو يوشك على التبدل .. وبدأنا نشعر به مشحونًا بالكهرباء .. والسحب قد اكتست لونًا بنيًا فيه شىء من الاخضرار .. والظلام يتزايد ..

إنه نذير عاصفة ...

لم يبد على عمى الاهتمام لأن مزاجه لم يكن ليتحمل مزيدًا من الاكفهرار .. وقد دمرت أعصابه تمامًا فكرة أن هذا البحر مستمر إلى الأبد ..

السحب تضغط على صفحة البحر ، كأنما لتريد تحطيمه ..

ـ دعونا ننزل الشراع والصارية ..

ـ كلاَّ ..!

صرخ عمى فى جنون :

ـ أريد رؤية صخور الشاطئ حتى لو تهشم هذا الزورق إلى قطع صغيرة !

* * *

٧ـ بعض المصائب !..

لم يكد عمّى يكمل عبارته حتى انهمر المطر مدرارًا .. وازداد الظلام .. وفجأة يرتفع الطوف لأعلى .. وتدفع الريح المجنونة شراعنا للأمام أسرع وأسرع .. فأشير لـ (هانز) بإشارات تقول له أن ينزله لأسفل .. قبل أن يتحطم ..

ـ لا ..!

يصرخ عمّى .. فيرد (هانز) وهو يهزّ رأسه موافقًا عمّى :

ـ نادى !

المطر ينهال على رءوسنا كالشلال .. والعاصفة فى ذروة هياجها .. والرعد يزأر طيلة الوقت دون توقف ..

الحرارة تزداد وتزداد .. والجو مشحون بالكهرباء .. والعاصفة لا تهدأ ...

كانت ليلة رهيبة ..

الاثنين ٢٤ أغسطس :

العاصفة لم تهدأ لحظة .. رباه .. لكم نحتاج للراحة !.. لقد تركنا جزيرة (أكسل) منذ زمن طويل .. ربما يفصلنا عنها الآن ستمائة ميل ..

هاهو ذا عمّى يدنو منى ويقول شيئًا مًا .. لكننا منذ ثلاثة أيام لانسمع حرفًا مما نقول لبعضنا .. حتى الصراخ فى الأذن لا يجدى .. إلا أننى أعتقد أنه يقول :

ـ لقد ضعنا !.. انتهى أمرنا !..

أشرت إلى الشراع بما معناه :

ـ دعنا ننزله الآن ..

فهزّ رأسه بمعنى : فليكن ، وهنا تهشمت صارية الشراع وطار هذا الأخير فى الهواء .. وظهرت كرة نارية ملتهبة على حافة الطوف .. كرة لونها أبيض مزرق تتحرك ببطء شديد هنا وهناك ..

وتجمد الدم فى عروقنا لأنها لو لمست صندوق البارود ستكون النهاية .. إلا أنها تحركت ببطء نحو قدمى .. حاولت أن أجذب قدمى بعيدًا عنها فلم أستطع ..

وشممت رائحة غريبة فى الهواء ..

لماذا لا أستطيع تحريك قدمى وكأنها مقيدة إلى خشب الطوف ؟

فهمت !.. لقد مغنطت هذه الكرة الكهربائية كل ما هو معدنى على الطوف .. أسلحتنا .. أدواتنا .. حذائى الذى التصق بقطعة حديد على خشب الطوف ...

وهنا ـ وقبل أن تلمس الكرة قدمى ـ انفجرت ..

وغرقت فى ضوء أبيض مفزع ..
ثم ساد الظلام ...

* * *

الثلاثاء ٢٥ أغسطس :

لا بد أننى فقدت حواسى .. هل حقًا ما زلنا فى الماء ؟.. نعم .. مازلنا نندفع للأمام بسرعة مرعبة .. لا بد أننا الآن تحت ... لا بل لا بد أننا فارقنا (أوربا) من زمن ...

ثمة صخب .. كأنه زئير الأمواج إذ تصطدم بالصخور .. و ...

لم أدر ما حدث ..

فقط شعرت أننى أقذف إلى الشاطئ فوق الصخور الحادة .. ولولا ذراع (هانز) القوية لتهشمت ..

على الشاطئ وجدت نفسى جوار عمى على حين عاد (هانز) إلى الطوف المهشم محاولاً إنقاذ بعض متاعنا ..

واحتجت إلى ساعة كاملة لأستعيد قدرتى على الكلام ..

وكان (هانز) قد أعد لنا بعض الطعام إلا أنى لم استطع ابتلاع لقمة واحدة .. لقد حطمتنى رحلة الثلاثة أيام دون توقف ..

لقد انتهت العاصفة أخيرًا ..

وقف عمى يتأمل البحر الساكن .. وقال :

ــ آمل أنك قد نمت جيدًا يا بنى ..!



فقط شعرت أنني أقذف إلى الشاطئ فوق الصخور الحادة .. ولولا
ذراع (هانز) القوية لتهشمت ..

إنــه يتحــدث كأننــا مــا زلنــا فــى دارنــا فــى شــارع (كونيش) .. آه ..!.. لـو أن العاصفـة قد سـارت بنـا شرقًا فلربما كنا الآن تحت (ألمانيا) .. تحت (هامبورج) الحبيبة .. بل لربما تحت الشارع الذى تعيش فيه أجمـل وأرق فتاة فى الكون !.. وعندئذ لا يكون الفاصل بينـى وبينها سوى ١٢٠ ميلاً .. ١٢٠ ميلاً مـن قشرة الأرض الصلبة !

قلت لعمّى :

ـ تبدو سعيدًا حقًا اليوم ...

ـ بالطبع .. لقد وصلنا ؟

ـ لنهاية .. الرحلة ؟

ـ كـلاّ .. بـل لنهايـة هـذا البحـر الشـنيع .. سـنعود للهبوط ..!

تنحنحت ، ثم سألته بكياسة :

ـ هل لى فى سؤال يا عمّاه ؟

ـ أى شىء ..

ـ كيف سنعود ؟!

ـ نعود ؟.. نعود قبل أن نصل لنهاية الرحلة ؟ كيـف تفكر فى ذلك ؟ وعلى كل حال سنجد وقتها طريقًا آخر .. أو نعود من نفس الطريق ، وهو ما لا أراه أمرًا مشوقًا !

ـ عندئذ يجب أن نصلح الطوف ؟

ـ طبعًا ..
ـ والمؤن .. هل ستكفينا ...؟
ـ حتمًا .. إن (هاتز) قد استنقذ لنا أكثرها ...

الواقع أن هذا صحيح للأسف .. لقد فقدنا أسلحتنا .. لكننا ظللنا نملك (البارومتر) وهو ما رآه عمّى أهم شىء فى الرحلة لأنه دليلنا الوحيد على عمقنا .. ومن دونه ـ كما قال ـ سنضل الطريق ونخرج من مكان ما فى (أوستراليا) ....!

كذلك أنقذ (هاتز) البوصلة والكورنومتر .. والحبال .. والأطعمة أو ما تكفى منها لأربعة شهور .. وهى كمية رأى عمّى أنها تكفى للذهاب والعودة ، وإيلام وجبة عشاء فاخرة لزملائه فى الجامعة ...

وجلسنا نلتهم طعام الإفطار ..

سألت عمّى عما إذا كان بإمكانه تحديد مكاننا الآن .. فقال :

ـ ليس هذا سهلاً .. لكن هناك طريقة حتمًا ..

قلت محاولاً التذكر :

ـ عند تلك الجزيرة ...
ـ جزيرة (أكسل) .. لاتخجل من تسميتها !

ـ حسن .. عند جزيرة (أكسل) .. كنا قد عبرنا ٨١٠ ميلاً من البحر وكنا على بعد ١٨٠٠ ميل من (أيسلندا) ..

وفى العاصفة تحركنا بسرعة ٢٤٠ ميلاً فى اليوم لمدة ثلاثة أيام .. لم تقل سرعتنا عن ذلك ..

ـ إذن نحن نبعد ٢٧٠٠ ميل عن (أيسلندا) ... أى أننا تحت البحر الأبيض المتوسط ..

ـ لنقول ذلك يجب أن نكون متأكدين من أن اتجاهنا لم يتغير ...

ـ إذن .. فلنر البوصلة ..

نهض عمى بنشاط إلى حيث رتّب (هانز) المعدات .. واتجه إلى البوصلة .. ونظر إلى الإبرة للحظة .. ثم فرك عينيه وأعاد النظر .. وفى ذهول دفع رأسه نحوى ..

كانت الإبرة تشير باتجاه الشاطئ وليس البحر .. أى أنها لا تشير إلى ما حسبناه الجنوب .. هززتها .. فحصتها .. لكنها كانت على ما يرام ، وهذا يعنى شيئًا واحدًا .. أن الرياح قد أعادتنا إلى الشاطئ الذى بدأنا الرحلة منه !!.. لقد عدنا إلى حيث بدأنا ...

لم أرَ فى حياتى رجلاً أكثر إحباطًا من عمى فى البداية ولا أكثر منه جنونًا بعدها .. سنعيد كل ما فعلناه بعد كل هذه الرحلة المرعبة ..!

ـ أى حظ سيئ !.. الماء والنار والريح ضدى ..! يفعلون كل ما فى وسعهم كى يمنعوننى ..! ولكنهم لن يمنعونى أبدًا .. سنرى من ينتصر .. الإنسان أم قوى الطبيعة !

قلت فى كياسة :

ـ اسمعنى يا عمّاه .. ثمة أشياء لا يستطيع الإنسان أن يفعلها .. ثمة أشياء مستحيلة وأشياء غير ممكنة ، لكن من الحمق أن يجاهد الإنسان هذه الأشياء المستحيلة .. لسنا فى موقف يسمح لنا بعبور البحر ثانية بطوف مهشم وشراع هو سجادة ودون دفة .. عندئذ تستطيع أية عاصفة أن تصنع بنا ما تريد ..

وبالطبع لم يصغ عمّى لحرف مما قلت ... وصرخ :

ـ إلى الطوف !

شرعت أقاوم فى جنون هذه الإرادة الصخرية دون جدوى ... وكان (هانز) ـ بفطرة لا تخيب ـ قد أعاد إصلاح الطوف .. ووضع معداتنا فوقه وأعدّ كل شىء لبداية جديدة ..

ماذا أستطيع أن أفعل ؟.. إن (هانز) يبدو وكأنه لا إرادة له إلا أرادة سيده .. لا أستطيع سوى الاستمرار .. قال عمّى أنه يرغب فى استكشاف هذا الساحل قبل الرحيل .. إننا قد عدنا لحيث بدأنا لكن ـ بالطبع ـ ليس

لنفس البقعة .. ومن حقه حتمًا أن يرى هذا المكان ...

ـ فلنذهب إذن ...

سرنا نحو نصف ساعة قبل أن نصل لبعض المرتفعات .. نرمق كل شىء فى اهتمام عظيم ...، وهنا وجدنا عظامًا كثيرة على الأرض كأنها تحكى قصة الحياة كلها .. كأنه متحف كبير للحيوانات التى دبت على هذه الأرض يومًا ثم انقرضت ...

أما الشىء الغريب الذى لاحظته فى سيرنا فهو أننا لا نتحرك ظلالا على الأرض !.. كأن الضوء الساطع الذى نراه لا يأتى من موضع بعينه .. بل من كل الاتجاهات ..

وبعد أن سرنا نحو ميل وجدنا أنفسنا على حافة غابة ..

لم تكن من عش الغراب تلك الغابة .. بل من أشجار لا أعرفها .. ولم يكن لها لون .. وأوراقها تفتقر إلى الأخضر ... أما أزهارها فكانت رمادية ...

وفجأة ... تجمدنا فى مكاننا ...

خيل لنا أننا رأينا ... بل هو كذلك ... رأينا شكلاً ضخمًا يجول تحت الأشجار .. كان فيلاً هائل الحجم يكسوه شعر طويل .. (ماموث) !.. فيل عصر الجليد ..!.. بل كان هناك العديد منها .. مايقرب من العشرين فيلاً

يتحركون ببطء محطمين غصون الأشجار ...

همس عمّى :

ـ تعالوا نلق نظرة مدققة عليها ..

ـ إن هذا خطر .. فليس معنا أسلحة .. ولو أنها رأتنا .. أنا لا أحسب إنسانًا يجرؤ على الدنو منها ..

ـ هل تقول : لا إنسان يا (أكسل) ؟.. أظنك مخطئًا لأننى أرى إنسانًا قرب هذه الحيوانات !

لقد كان مصيبًا .. فعلى مسافة ربع ميل كان هناك رجل .. مريحًا نفسه إلى جذع شجرة .. رجل حقيقى وإن كان حجمه يتناسب مع هذه الوحوش التى يُعنى بها .. وشعره يحاكى شعرها طولًا ...

ووقفنا جامدين كالتماثيل الحجرية ..

لا يجب أن يرانا هذا الشىء .. يجب أن نفرّ ..

جذبت كم عمّى فى لهفة كى نبتعد .. ولأول مرة فى حياته سمح عمّى لنفسه أن يستجيب لجذب كمه ..

وابتعدنا ...

ما زلت ـ حتى اليوم ـ أتساءل .. أى شىء أصدق وأى شىء أعتقد .. لا بد أن كل هذا كان وهمًا جماعيًا .. من المستحيل أن يعيش إنسان فى الأعماق السحيقة دون أن يعرف كل ما يدور على سطح الأرض ...

المهم أننا فررنا كالمجانين قاصدين بحر (ليدنبروك) ..

* * *

تساءلَ عمّى فى حيرة وهو يعيد تأمل المكان :

ـ ما زلت أتساءل يا (أكسل) .. هل حقًا كنا هنا ؟

ـ لست واثقًا يا عمّاه .. أحيانًا أظن أن هذه الأماكن مألوفة ، وأحيانًا أظن أننى لم أرها من قبل ..

ـ لكننا لا بد واجدون آثارًا تركها (هانز) .. فى أثناء صنعه الطوف ...

ـ ها هو ذا ...

وهرعت إلى شىء ملقى على الرمال والتقطته ...

ـ انظر !.. سكين ...

تأمل عمّى السكين ثم سألنى :

ـ (أكسل) يا بنى .. هل هذه السكين تخصك ؟..

ـ لا .. حسبتك أنت ...

ـ بالطبع لا ...

ـ إذن ربّما هى سكين (هانز) ..؟.. لا بد أنه فقدها وهو يصنع الطوف ..

ـ لا .. حتّى (هانز) لم تكن عنده سكين مماثلة ..

ثم أن عمّى هرش رأسه مفكرًا :

ـ إن هذه السكين لا تخصّ أحدنا .. ربّما هى تعود إلى ثلاثمائة عام .. ربّما هى تخصّ شخصًا جاء هنا قبلنا

وأراد أن يحفر اسمه على صخرة بهذه السكين ..!

سرنا جوار الصخور نبحث هنا وهناك متفحصين كل شق .. وفجأة .. وبين حائطين من الصخور رأينا فتحة نفق مظلم كبير ..

وعلى الجرانيت رأينا حروفًا محفورة مألوفة لنا :

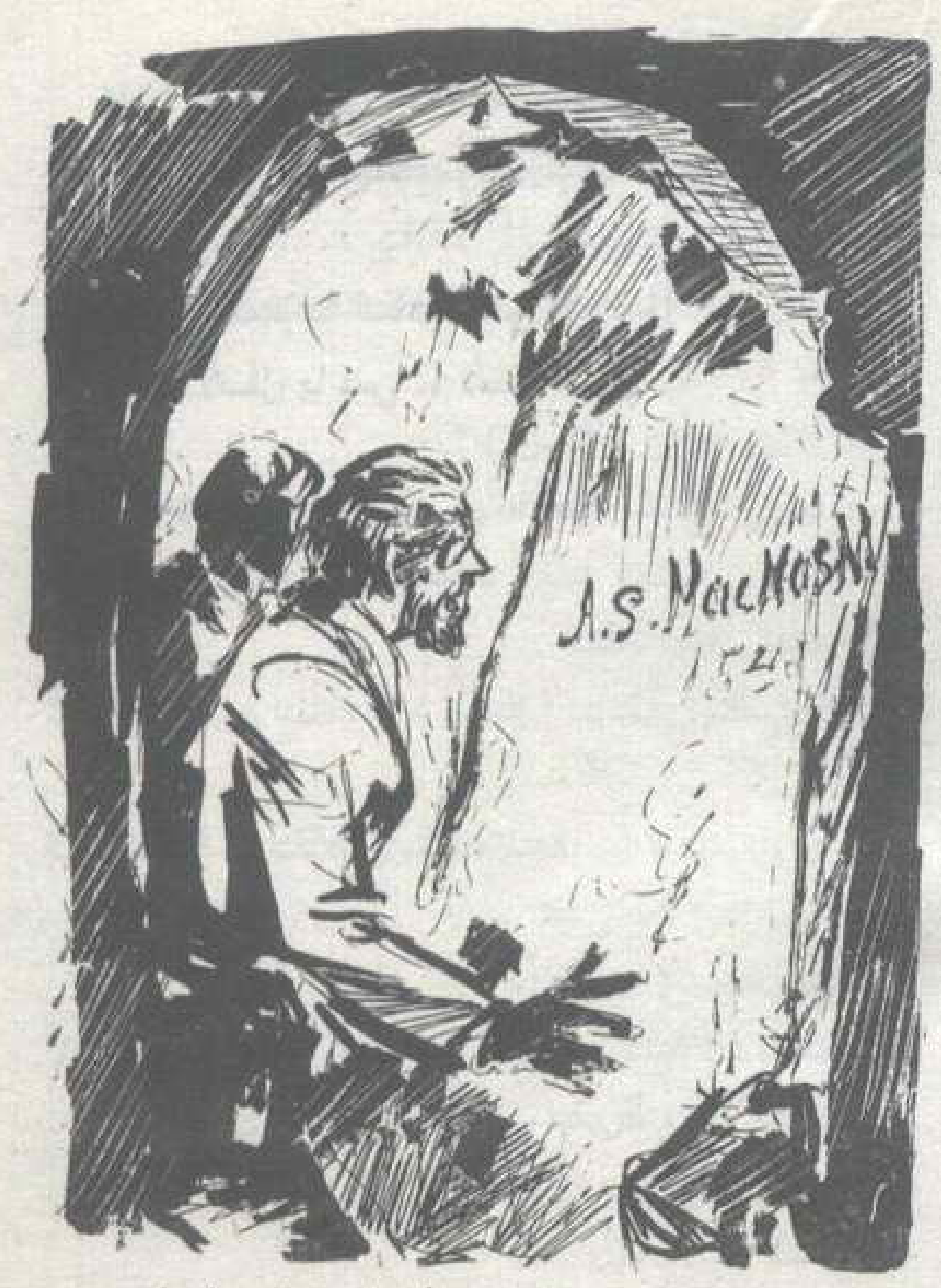
ـ أ . س .. (آرنيه ساكنوسمّ) !!

دائمًا ـ وكعهدنا به ـ يعاود (ساكنوسمّ) الظهور ..!

وهكذا وقفنا نرمق الحروف فى انبهار هو أقرب إلى الجنون .. لقد وصَل الرحّالة العظيم !.. إلى هنا منذ ثلاثمائة عام .. وحفر اسمه بل إن الأداة التى استعملها فى يدى الآن .. وكل هذا حقيقى لا غبار عليه !!..

كان عمّى يحدث نفسه و كأنما يتحدث إلى (ساكنوسمّ) نفسه :

ـ أيها الرجل العظيم !.. لم تنس شيئًا .. يمكن أن يهدى من يأتون بعدك .. لم تنس شيئًا .. وإننى لواثق أننى سأجد اسمك فى مركز الأرض .. وسأترك اسمى هناك جوار اسمك ..



وفجأة .. وبين حائطين من الصخور رأينا فتحة نفق مظلم كبير ..

وعلى الجرانيت رأينا حروفًا محفورة ..

كانت نار الحماس تلتهب فى أعماقى ..

إننا سننجح .. سننجح ولن يعوقنا شىء .. فلسنا أقل من هذا الرجل :

ـ إلى الأمام يا عمّاه .. إلى الأمام !!

ـ بل لأسفل يا بنى .. لأسفل ..!

* * *

٨ ـ النهاية ...

صرخت فى عمى بانبهار حقيقى :

ـ هل تدرك يا عمى أن المصادفات جميعًا تعمل لصالحنا ؟

ـ أتظن هذا يا (أكسل) ؟

ـ حتى العاصفة قادتنا إلى الطريق الصحيح .. لقد قادتنا [illegible] نجد اسم (ساكنوسم) وإلى حيث نجد بداية النفق الذى سلكه ..

ـ الحق أقول لك يا (أكسل) إن حظنا حسن إلى حد كبير ..

ـ ليس مهمًّا أن نفهم ما سر حظنا .. فقط دعنا نستفد منه إلى أقصى حدّ ..

ـ هذا صحيح .. و ..

ـ سنعود للشمال يا عماه .. سنمر تحت أوروبا بدلاً من المرور تحت أفريقيا .. سننزل .. ننزل .. ننزل .. قلت لى كم بقى على مركز الأرض ؟

ـ فقط ٤٥٠٠ ميل .. !

ـ فقط ٤٥٠٠ ميل ؟ .. هذا لا شىء .. فلنبدأ فى الحال .. !

وهكذا عدنا إلى الطوف حيث كان كل شىء معدًا ..
ورفعنا الشراع وبدأنا التحرك عبر الساحل قاصدين
المكان الذى وجدنا السكين فيه ..

فى السادسة مساء وصلنا إلى فتحة النفق ، فوثبت
إلى الشاطئ صارخًا :

ـ هيا بنا ..

كان ارتفاع الفتحة خمسة أقدام .. هذا هو النفق
الذى سيقودنا إلى مركز الأرض إذن .. هل هو مُنحدر
لأسفل ؟ أم هو مدخنة رأسية ؟ أم أننا سنمضى أيامًا
ماشين فى مستوى أفقى دون أن نهبط ؟

وكانت الإجابة قريبة جدًا ..

كانت هنالك صخرة عملاقة تسدّ النفق على بعد
خطوات ست من فتحته .. أى أن النفق قد انتهى !! ..

كانت خيبة أملنا لا توصف .. إذن كيف اجتاز
(ساكنوسمّ) هذه العقبة ؟ وأى شىء فعل ؟ ..

كلاً .. لا بد أن هذه الصخرة قد سدّت النفق بعد عهد
(ساكنوسمّ) .. ومن ثم لا بد أن نعيد فتحه ..
فلنستعمل المعاول ..

ـ كلاً .. إن هذه الصخرة أقوى من معاولنا .. ماذا
عن البارود ؟

ـ قال عمّى :

ـ هذا هو الحلّ .. بارود .. هاته يا (هانز) ...

ذهب دليلنا الوفى إلى الطوف ، ثم عاد لنا بالبارود ومعول يسمح لنا بعمل ثقب ندس فيه البارود فى الصخرة .. خمسين رطلاً ...

وعند منتصف الليل كنا قد فرغنا ...

ـ والآن لننتظر إلى غد ..

ـ إلى غد ؟

كنت أنا ـ لا عمّى ـ قائل العبارة الأخيرة .. لأننى كنت أنا نافد الصبر وليس عمّى الذى غدا أكثر ميلاً للتريث فى كل خطوة ...

وهكذا لم أجد مفرًا من الانتظار ست ساعات طويلة ..

* * *

إنه الثلاثاء السابع والعشرون من أغسطس ..

يوم لا يُنسى ...

اليوم نسلم أنفسنا لقوى الريح والنار والماء كى تُعنى بنا ...

أشعلت الفتيل ، ثم هرعت ألحق برفيقىّ على الطوف .. وابتعدنا بعيدًا عن التأثير المرتقب للانفجار ..

خمس دقائق .. أربع ... ثلاث ...

والآن فلتتهشمى يا صخور الجرانيت ..

* * *

ماذا حدث ؟..

لا أدرى حقًا .. لم أسمع صوت الانفجار لكنى رأيت شكل الصخور يتبدل .. والفتحة تتسعَ .. واهتز البحر من تحتنا .. وصعدت موجةَ هائلة الحجم لأعلى حاملة طوفنا معها ...

ارتفع الطوف ثم هبط .. ساد الظلام .. وشعرنا بالماء يحملنا إلى فتحةَ الممر .. حاولت أن أقول شيئًا لعمّى لكن زئير المياه كان أقوى منى .. عبر الظلام تحملنا الأمواج بسرعة مجنونة إلى مكان ما ..

إننا نهبط ..!.. إذن كانت هناك حفرة عميقة خلف الصخرة .. والآن يقودنا الماء من خلال هذه الحفرة لأسفل !..

كم ساعةَ مرت علينا فى هذا الحال ؟.. ساعة .. ساعتان ؟.. لا أحد يدرى .. كل ما أذكره أننا كنا متلاصقين نمسك بأيدى بعضنا حتى لا يهوى أحدنا من فوق الطوف ..

وكان الظلام دامسًا لأن مصابيحنا تهشمت ..

أخذت أنا وعمّى نتبادل نظرات الهلع مديرين ظهرنا لاتجاه حركةَ الطوف حتى نتمكن من التنفس ..

كان الطوف يسير بسرعة كأسرع قطار لم يخترعوه

بعد .. إن (ساكنوسم) قد سلك هذا الطريق قبلنا ولكن دون البحر الهائل الذى اصطحبناه معنا ..

ومرت ساعات ..

وبصعوبة بدأت أتبين أننا فقدنا كل متاعنا .. الحبال .. البارومتر .. كل شىء .. لم يبق لنا سوى البوصلة والكرونومتر .. وطعام ليوم واحد – للأسف – وهذا يعنى النهاية حتمًا ..

لكن لماذا أخشى الموت جوعًا فى حين أننى أملك ترف الموت بمئات الأساليب والأشكال ؟.. إننا سنموت غرقًا أو تحطيمًا أو هلعًا بالتأكيد قبل أن نموت جوعًا ..!

إن سرعة الطوف تزداد .. وانحدار الماء يتزايد ..

وفجأة شعرت بصدمة مروعة .. وتوقف الطوف .. بدأت المياه تنهمر حولنا .. ثم ساد الهدوء وشعرت بلذة التنفس ...

كانت الساعة العاشرة ليلاً ..

ثم إننى سمعت صوت عمّى فى الظلام :

– نحن نصعد ...!

– ماذا ؟

– نصعد .. نصعد بسرعة عالية .. حاول أن تضىء المصباح الباقى .. هكذا ..!.. كما توقعت تمامًا .. إنه بئر عرضه عشرون قدمًا .. والماء يرتفع ونحن معه ..

ـ لأين ؟..

ـ وكيف أعرف ؟.. إن سرعتنا لن تقل عن اثنى عشر قدمًا فى الثانية .. أى تسعة أميال ونصف فى الساعة ..

ـ ولكن .. هذا يعنى أننا سنتهشم مالم توجد فتحة فوقنا .. قال عمّى فى رزانة :

ـ (أكسل) .. إن موقفنا سيئ حتمًا لكنه ليس مستحيلاً ما دمنا أحياء .. ولهذا علينا أن نفعل ما ينبغى عمله ..

ـ وما هو ؟

أن نصير أقوى .. نأكل ...

ـ نأكل ؟!!

والتفت عمّى إلى (هانز) راطنًا بالدانمركية بضع كلمات .. فهزّ هذا الأخير رأسه موافقًا ..

قلت لعمّى :

ـ لم يبقَ لنا سوى قطعة من اللحم المقدّد لثلاثتنا ..

رفع عمّى رأسه نحوى فى يأس .. فقلت :

ـ أما زلت تظن أننا سننجو ..؟

لم يردّ .. وكيف يردّ ؟..

كنا نتضوّر جوعًا لكن أحدنا لم يجرؤ على لمس وجبتنا الأخيرة .. كنا مستمرين فى الصعود لكن حرارة

الجوّ تزداد بين لحظة وأخرى ..

فما معنى هذا ؟..

قلت لعمّى فى تشفّ :

ـ إن خطر الموت سلفًا يُضاف إلى قائمة أسباب وفاتنا ..!

مرة أخرى لم يرد عمّى ...

وفجأة قال :

ـ هلموا !.. دعونا نأكل فنحن بحاجة للصمود ..

ـ أنت محق فلو متنا الآن لن نستفيد شيئًا من هذا اللحم الجيد ..

ـ نعم .. على الأقل سنلاقى نهايتنا بصحة لا بأس بها ..

ومدّ عمّى يده وقسم قطعة اللحم ثلاثة أقسام متساوية.. وهكذا نال كل منّا رطلاً .. وشرعت آكل فى صعوبة كأنى ألتهم حجرًا .. أما (هانز) فظل على هدوئه وسكونه ..

إنها الخامسة صباحًا ...

كنت غارقًا فى خواطرى عن دارنا .. و (مارتا) الطيبة .. و ... حبيبتى (جروبن) .. أما عمّى فكان منهمكًا فى فحص الصخور محاولاً استنتاج موضعنا .. وقال :

ـ جرانيت !.. لم نزل على عمق كبير .. لكننا نصعد باستمرار .. لشدّ ماتبدل عمّى !.. تارة لا يسعده سوى الهبوط وتارة لا يرضيه سوى الصعود .. لن أفهم هذا الرجل أبدًا ..!

إلا أن الشىء الذى أثار رعبى كان هو هذا التبدل المطرد فى درجة حرارة الجدران الصخرية والماء .. لقد كان الماء يغلى وشرعت أتوقع مصيبة ما لا أدرى كنهها ..

شىء ما سيحدث .. شىء لا أستطيع تسميته ...

* * *

وحين نظرت إلى البوصلة وجدت إبرتها تهتز بلا هدف .. صخور الجرانيت على الجدران ترتجف .. وثمة صوت شبيه بانفجارات بعيدة .. يا للرعب !.. عمّى !.. إننا فى وسط زلزال .. أنا واثق من هذا فماذا تقول ؟

ـ إننى أتوقع ما هو أفضل يا بنىّ ..

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى انفجارًا حمميًا !

ـ ماذا ؟.. إذن فنحن وسط بركان نشيط ؟!

ـ بالطبع .. وأعتقد أن هذا حظ حسن !

هل فقد عقله ؟.. حظ حسن ؟.. وما سر ابتسامته الهادئة هذه ؟

ـ عمّي .. نحن في فوهة بركان وسط الحمم والبخار الحارق والصخور الملتهبة و سيقذف بنا في عنان السماء .. وأنت تقول حظ حسن !

ـ نعم .. هو أملنا الأخير في الصعود لسطح الأرض .. ألم تفهم بعد ؟!

ـ إذن فنحن نصعد .. تحت طوفان ماء يغلي .. وتحت الماء حمم تلتهب .. وبدلاً من (سنيفل) الوادع الخامد هو ذا بركان نشط .. ولكن أين ؟.. وما اسمه ؟.. إننا سنخرج في الشمال .. هذا مؤكد .. فهل سنخرج في (إيسلندا) من فوهة (هيكلا) أو أي بركان آخر من البراكين السبعة التي توجد هناك ؟..

إننا نصعد .. وهذا يعني نهاية رحلتنا إلى مركز الأرض ..

وتحت الطوف لم يعد ماء .. بل كتلة ملتهبة لا أدري ما هي ..

ثم ـ فجأة ـ توقف الطوف ..

ماذا حدث ؟.. أتراه قد اشتبك بالصخور ؟ لكن لا .. حتى السائل الملتهب تحتنا قد توقف كذلك .. هذا غريب !

وفجأة عاد الطوف يصعد سريعًا لمدة دقيقتين ، ثم توقف ثانية .. نظر عمّي لساعة الإيقاف .. وقال :



إننا نصعد .. وهذا يعنى نهاية رحلتنا إلى مركز الأرض ..

ـ إذن هو من البراكين التى تتجدد ثورتها كل عشر دقائق ..

وهنا عاد البركان لثورته .. وعدنا نرتفع بسرعة هائلة اضطرتنا للتشبث بالطوف .. ثم توقفنا ..

كم من الوقت تكرر هذا المشهد ؟.. لا أذكر .. فقط كنت أشعر بسرعتنا تتزايد والحرارة تشتد .. وبدأت أفقد حواسي .. لقد هدنى التوتر والصدمات المتتالية ..

حقًا لا أذكر ما حدث بعد ذلك ..

فقط ضوضاء لا تكف .. وطوف يدور حول نفسه فوق الحمم .. ثم وجه (هانز) يلتمع فى ضوء النيران ..

* * *

حين أفقت كانت ذراع (هانز) القوية تمسك بى .. ولم أكن مصابًا .. لكنى كنت منهكا تمامًا .. تمامًا ..

وكان (هانز) يمسك بى وبعمّى جارًا إيانا إلى مكان آمن .. مكان عرفنا فيه أن ما فوق رءوسنا ليس صخرًا ولكن سماء !..

سماء حقيقية ..!..

لقد عدنا إلى سطح الأرض .. ولكن أين ؟..

سألت (هانز) ..

ـ هل هذه (أيسلندا) ؟

هزّ (هانز) رأسه أن لا .. وهتف :

ـ ناى !

قال عمّى فى حيرة :

ـ بالفعل لا تبدو هذه مثل (ايسلندا) .. لا توجد ثلوج .. بل هى أقرب إلى قمة جبل أحرقتها أشعة الشمس .. وإننى لمندهش !

وفوق رءوسنا ـ على ارتفاع خمسمائة قدم ـ كانت فوهة البركان التى جئنا منها .. تنفجر منها الحمم والصخور كلما مرت عشر دقائق ..، وعلى مسافة غير بعيدة تتراءى لأعيننا الحقول البعيدة .. وخضرة الغابات ..

حقًا هى ليست (ايسلندا) ..

من مسافة شاسعة كنا نرى البحر الأزرق تسبح فيه سفن صغيرة غريبة المنظر ..

ـ على كل حال ليس من الجميل أن نموت بصخرة تسقط فوقنا من هذا البركان الثائر بعد أن نجونا من الاحتراق داخله .. دعنا ننزل إلى الوادى وسنعرف مكاننا بسهولة عندئذ .. أضف لهذا أننى أموت جوعًا وظمأ ..

هكذا قال عمّى .. كان كلامه مقنعًا ..

شرعنا نهبط المنحدر وأنا ما أزال أتساءل .. أين نحن ؟ هل هو ساحل الهند أم جزر الملايو ؟.. على كل حال يسرنى أن أرى أن عمّى سعيد برغم أننا لم نستطع الوصول إلى مركز الأرض كما أردنا ..

وعند الوادى وجدنا غابة تنبت بها أشجار الفاكهة .. ووجدنا ماء .. فشربنا حتى ارتوينا .. واستحممنا ..

وفجأة لمحنا طفلاً بين الأشجار .. طفلاً فقيرًا ممزق الثياب يرمقنا بهلع حقيقى .. ثم حاول الهرب إلا أن (هانز) لحق به وحمله إلينا ..

سأله عمى بالألمانية :

ـ صديقى الصغير .. ما اسم هذا البلد ؟

لا إجابة ..

أعاد عمى سؤاله بالإنجليزية فلم يتلق إجابة ..

ـ إذن هذا البلد ليس ألمانيا ولا إنجلترا .. فلنجرب الإيطالية .. .. أ .. دوفى نوى سيامو ؟

صرخ الطفل وهو يتملص من قبضة (هانز) ويجرى بعيدًا :

ـ (سترومبولى) !!

لم تعد لنا حاجة إليه الآن ..!.. إذن نحن فى جزيرة وسط البحر الأبيض .. والمرتفعات المحيطة بنا هى مرتفعات (كالابريا) .. وإذن فالبركان هو بركان (إتنا) !!

أية رحلة رائعة قمنا بها !.. دخلنا فى بركان وخرجنا من آخر يبعد عنه ثلاثة آلاف ميل ..!.. بدأنا فى بلد الصقيع وخرجنا فى أجمل بلدان الأرض ..

اتفقنا على أن نمشى للبلدة على ألا نخبر الأهالى برحلتنا .. بل نزعم أننا بحارة غرقت سفينتهم ونبغى عوننا ..

وهكذا تحركنا .. لكن عمّى لم يكن راضيًا أبدًا وشرع يردّد :

ـ لكن البوصلة كانت تشير إلى الشمال .. دومًا إلى الشمال .. كيف ؟ كيف ؟

ـ لا تحاول البحث عن تفسير .. هكذا تريح وتستريح ..

ـ يا لها من فكرة .. أستاذ جامعة لا يستطيع أن يفسر شيئًا كهذا ؟

أى عجز ..

* * *

وهكذا تصل القصة إلى نهايتها .. أعلم أن أحدًا لن يصدقها لكن هذا لا يضايقنى .. إن الناس قد دأبوا على تكذيب كل ما لا يوافق ما يريدون تصديقه ..

لقد أحسن أهل (سترومبولى) وفادتنا .. وقدموا لنا الطعام والملبس .. ثم إننا أقلعنا إلى (ميسينا) فى الواحد والثلاثين من (أغسطس) ثم إلى (مارسيليا) .. ولم ينغص رحلتنا سوى هذا الموقف العجيب الذى تتمسك به بوصلتنا ...

وفى التاسع من سبتمبر وصلنا إلى (هامبورج) !

لن أصف لك ذهول (مارتا) ولا غبطة (جرويبن) التى هتفت وهى تمسك يدى :

ــ أما قد غدوت شهيرًا فلن تحتاج إلى فراقى ثانية ..

وسرعان ما دوّى خبر عودة البروفسير (ليدنبروك) فى (هامبورج) .. فقد كانت ثرثرة (مارتا) قد جعلت الجميع يعرفون بغرض رحلتنا .. وبالطبع لم يصدقها أحد .. أما وقد عدنا سالمين ، فإن أحدًا لم يعد يصدقها إطلاقًا ..!

إلا أن وجود (هانز) معنا جعلهم غير واثقين تمامًا من كذبنا .. وفى الجامعة ألقى عمّى محاضرة عن رحلته .. وقدم للجامعة المخطوطة الأصلية التى كتبها (ساكنوسمّ) عن رحلته التى سبقتنا فيها إلى باطن الأرض ..

على أن عمّى قد كسب أعداء كثيرين (وهذا محتّم طبعًا) .. وزاد من ضيقتنا ذلك اليوم الكئيب الذى أعلن (هانز) فيه عزمه على العودة إلى داره .. سألناه مرارًا أن يبقى معنا .. لكنه كان يعانى من الحنين للوطن .. وقال لنا مودعًا :

ــ فيرفال ... !

لقد أحببنا هذا الرجل الشجاع الصموت كثيرًا .. ولولاه لما حققنا نجاحًا .. ولا ظللنا حيين أنا وعمّى .. ولسوف نذكره ما حيينا .. ولسوف أراه حتمًا يومًا ما ..

على أن سرّ البوصلة ظل غامضًا ..

وبالتالى لم يستطع عمّى قط أن ينعم بثمار النجاح ..
إلى أن جاء ذلك اليوم الذى كنت أتأمل فيه البوصلة حين فهمت على الفور ما حدث ..
يا لها من مفاجأة !
ناديت عمّى :
ـ انظر يا عمّاه .. البوصلة ..!.. إنها الآن تشير نحو الجنوب بدلا من الشمال ...
صرخ عمّى فى تعاسة :
ـ مستحيل !
ـ تأملها !
وهنا فهم عمّى الأمر برمته :
ـ فهمت كل شىء !.. حين واجهنا العاصفة الكهربية فى بحر (ليدنبروك) تمغنطت البوصلة ضمن الأشياء التى تمغنطت .. وبالتالى حصلنا على قياسات خاطئة طيلة الوقت ...
ـ بالفعل ...
وانفجر عمّى ضاحكًا :
ـ كانت دعابة .. دعابة كهربائية !!
ومنذ ذلك الحين غدا عمّى أسعد الرجال .. ربما باستثناء رجل واحد وهو أنا ..
لأن (جروبين) كانت قد صارت زوجتى .

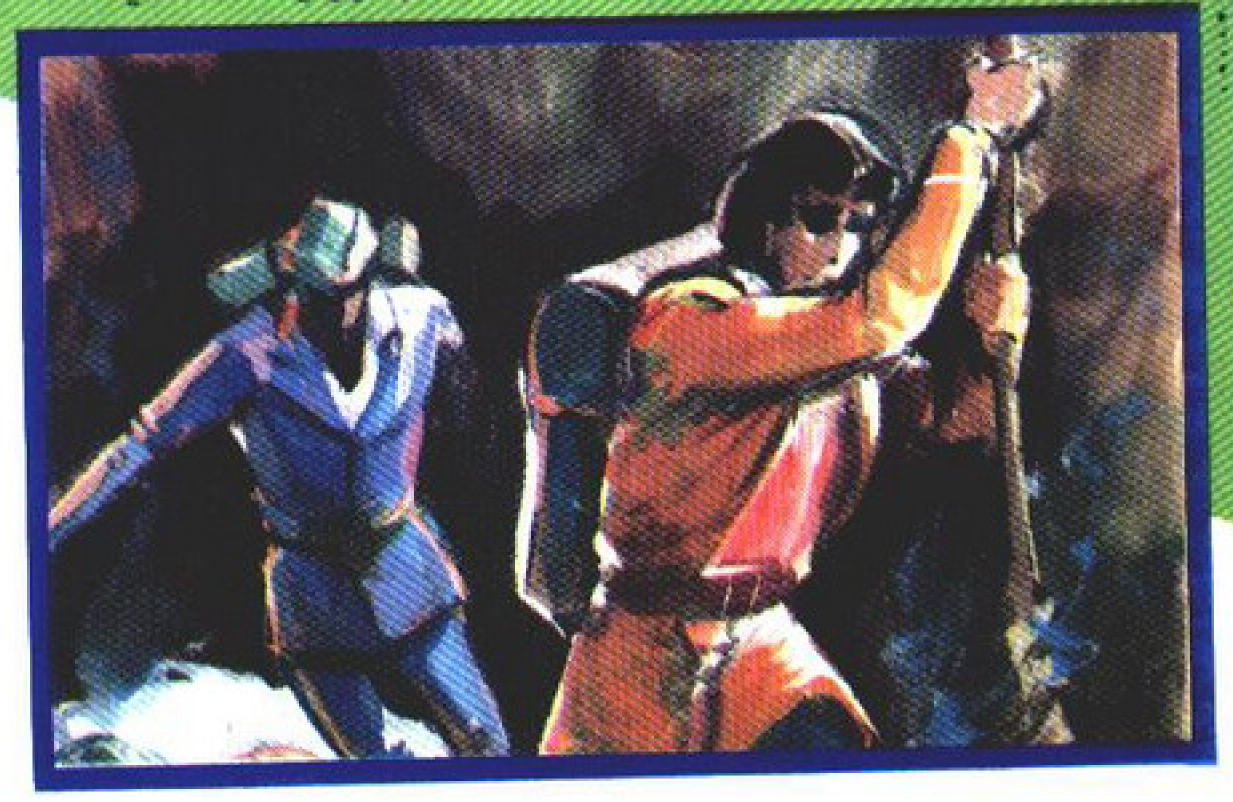
* * *

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع : ٢٥٥٧ / ٠
٩٧٧ــ١٦٣ــ٣٩٤ــ٥

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية



رحلة إلى مركز الأرض

٧

كانت فكرة مجنونة خطرت لعمه ، ولم يكن يملك سوى القبول .. سيقومان برحلة إلى مركز الأرض عبر فوهة بركان خامد ..!..! إن أحدًا لم يسبقهما إلى رحلة مماثلة .. لهذا كل شيء ممكن .. كل كابوس حقيقة .. وكل خطوة قد تكون الأخيرة ..!

إن عشاق (جول فيرن) لن يدعوا هذه الرواية تفوتهم ..

الثمن في مصر

وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية

العدد القادم : الغيبوبة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع